سِلْسِلَةُ دِرَاسَاتِ أَدَوَاتِ الهَيْمَنَةِ الاسْتِعْمَارِيَّةِ ٥

اسْتِرَاتِيجِيَّاتُ الهَيْمَنَةِ

الحَرْبُ النَّاعِمَةُ وآلِيَّاتُ المُقَاوَمَةِ

قاسم شعيب

مَرْكَزُ بَرَاثَا لِلدِّرَاسَاتِ وَالبُحُوثِ
Baratha Center for Studies and Research

استراتيجيّاتُ الهَيمَنةِ
الحَربُ النّاعِمَةُ وآلِيّاتُ المُقَاوَمَةِ

قاسم شعيب

◆ رقم الطبعة: الأولى
◆ تاريخ الطبعة: ٢٠٢٤ م - ١٤٤٦هـ
◆ مكان الطبعة: بيروت - بغداد

الآراء المطروحة لا تعبر عن رأي المركز بالضرورة

© جميع الحقوق محفوظة للمركز

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد

Baratha Center for Studies and Research
www.barathacenter.com
barathacenter@gmail.com

سِلْسِلَةُ دِرَاسَاتِ أَدَوَاتِ الهَيْمَنَةِ الاسْتِعْمَارِيَّةِ ٤

اسْتِرَاتِيجِيَّاتُ الهَيْمَنَةِ

الحَرْبُ النَّاعِمَةُ وآلِيَّاتُ المُقَاوَمَةِ

قاسم شعيب

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد

سلسلة دراسات أدوات الهيمنة الاستعمارية

مـن أخطر أدوات الهيمنة، الهيمنة على العقول، وأخطر أنـواع الهزيمة، الهزيمة الحضارية، كي يترسخ في وعي الأمم المستعمَرة أن من حق الرجل الأبيض السيطرة عليها لتفوقه وتقدمه، وأن احتلاله لأرضها جاء بسـبب حالة ضعفها الشـديد حضاريًا وثقافيًا ثم عسكريا وتقنيًا، وأنّه لا فكاك أمامها إلا بالرضوخ واتباع خطوات المستعمِر، لعلها تلحق به يومًا أو تقارب مسيرته.

يرتبط مصطلح الهيمنة Hegemony بفكر الاستعمَار Colonialism وطروحاته؛ فالاستعمار الغربي كان في أقل توصيف له هيمنة على الشـعوب الضعيفـة، والتحكم في مقدراتها، ونهب ثرواتها، والسـعي للسـيطرة المطلقة على مصائرها، وأيضا محو هويتها، والتحكم في ثقافاتها، فمِـن النزعة المسـيحيّة إلى النزعـة القوميّة، ومن مركزيّـة الغرب إلى النزعة الماديـة الليبرالية ومحورية الإنسـان إلى ما بعد الحداثة وسـيولة القيَـم والمعنى! جميعها منظومات اسـتعمار حديث بهدف واحد وأثواب مختلفة.

وكـما كانت مسـوغات الاسـتعمار عددا من الشـعارات الأساسـية تظهر في قيـم ومبادئ عادة مثل: الحفاظ على النظام الاجتماعي والاسـتقرار والتقدم؛ مصحوبة باسـتدعاء الخطاب الإمبريالي الذي يتم فيه تسـويق القيم والافتراضات الفكرية والعقائد والسـلوكيات الأوروبية، انتهى الاسـتعمار إلى عمل ما يسـمى (اسـتدماج أيديولوجي) من خلال أدوات الهيمنة مثل: التعليم والإعلام والأدب، والتي تأتي محملة برؤى ظاهرة ومبطنة، لصالح الاسـتعمار، وتتسلل إلى الوعي العام لدى الشـعوب المسـتعمَرة، فلا ترضى بأقل من الاستسلام وتقليد المستعمر، أي استمرار الهيمنة من خلال تبعية الشعوب.

لذلـك قررنـا في (مركـز براثا للدراسـات والبحوث) من خلال (سلسـلة دراسـات أدوات الهيمنة الاستعمارية) أن نسـلّط الضوء على أدوات الاحتلال الحديث، بهدف فصل تشابكات الاسـتعمار الفكرية والثقافيـة في وعي ولاوعي المجتمعـات العربية والإسـلامية، ومحاكمة الافتراضات الثقافية الأوروبية التي سـادت بوصفها المألـوف أو الطبيعي أو العالمي، وإعادة النظـر إلى معايير النظر في العالم والتاريخ من وجهة نظر المنتصرين، من أجل تكوين مجتمع أقل «قابلية للاستعمار».

مُلخَّصٌ

مع التَّدفُّق الهائل للمعلومات بسبب التَّطوُّر التّكنولوجي الكبير، وتشابُك المصالح، أصبحت الحرب النَّاعمة أداةً أساس، تستخدمها الدُّول والمنظَّمات لتحقيق أهدافها، دون الحاجة إلى إطلاق رصاصة واحدة. لم تعُد هناك حاجةٌ لاحتلال الأرض من أجل إعادة تشكيل الثَّقافة والوعي، وإعادة صياغة القِيَم والتَّأثير على القرارات السّياسيَّة والاجتماعيَّة، بل صارت أدواتٌ جديدةٌ تفعل ذلك مثل: الإعلام، والدبلوماسيَّة، والتّكنولوجيا، حتَّى الفنون والتَّرفيه.

من المهمّ القول إن الحرب النَّاعمة ليست جديدةً في جوهرها، فقد استخدمت الإمبراطوريَّات -عبر التاريخ- الثَّقافة والدّعاية من أجل السَّيطرة، لكنَّها اليوم تتَّخذ أبعادًا غير مسبوقة، بفضل التّكنولوجيا ووسائل التَّواصُل. فهي حربٌ غير مُعلنة، لكنَّ آثارَها لا تخفى في: انهيار القِيَم، وفقدان للبوصلة الخُلُقيَّة.

وهنا السُّؤال الذي يحتاج إلى إجابات عمليَّة، ولكن أيضًا نظريَّة لا غِنى عنها: كيف يُمكن للمجتمعات -المُؤمنة خاصة، والمُسلمة عامة- أن

تُحصّن نفسها ضدَّ هذا العدوّ الخفيّ غير المرئي؟ وكيف ينبغي لمطلب الوعي العميق، والإرادة الصُّلبة، والاستراتيجيَّات المُبتكرة، الَّتي تجمع بين احترام الذَّات، والتَّمسُّك بالجذور ومواجهة التَّحديات، أن تكون حاضرةً بقوةٍ لمواجهة هذه التَّهديدات غير المسبوقة؟

مُقَدّمَةٌ

لم تعُد الحروب تقتصر على استخدام القوَّة العسكريَّة، والأسلحة المُختلفة من صواريخ وطائراتٍ ومدرّعاتٍ وحدها في العالم اليوم، بل أصبحت أدواتها متنوّعةً وأكثر دقة وتأثيراً، تتسلَّل إلى العقول والنُّفوس قبل أن تصل إلى الميادين. وهذه هي الحروب الجديدة، الَّتي نقلت أدوات الصّراع من القُوَّة الصُّلبة إلى القوَّة النَّاعمة في جزءٍ كبيرٍ منها، وبات ذلك الصّراع غيرَ التَّقليديّ يعتمد بدرجة واسعة، على التَّأثير النَّفسي والثَّقافيّ والإعلاميّ، والتَّخريب الاجتماعيّ، بدلاً من المُواجهة العسكريَّة المباشرة وحدها.

فمع التَّدفُّق الهائل للمعلومات، بسبب التَّطوّر التّكنولوجي الكبير وتشابُك المصالح، أصبحت الحربُ النَّاعمة أداةً رئيسةً، تستخدمها الدُّول والمُنظَّمات لتحقيق أهدافها، دون الحاجة إلى إطلاق رَصاصةٍ واحدةٍ. لم تعُد هناك حاجةٌ لاحتلال الأرض، من أجل إعادة تشكيل الثَّقافة والوعي وإعادة صياغة القِيَم والتَّأثير على القرارات السياسيَّة والاجتماعيَّة، بل صارت

أدواتٌ جديدةٌ تفعل ذلك مثل: الإعلام، والدبلوماسيَّة، والتّكنولوجيا، حتَّى الفنون والتَّرفيه. وبهذا المَعنى، ليست الحرب النَّاعمة «فن الجذب والإقناع» فحسب، لكنَّها أيضًا، في العُمق، أداةٌ للهيمنة تُستخدم لتغيير السُّلوكيَّات، وتفكيك الرَّوابط الاجتماعيَّة، وإعادة صياغة الهُويَّات، بما يخدم مصالح القُوى المهيمنة. وهي -على هذا النَّحو- الوجه الآخر للصّراع؛ حيثُ تتحوَّل الأفكار إلى قنابل صامتةٍ، والإغراءات إلى جيوش غير مرئيَّة، تُحاصر المُجتمعات من داخلها، وتحتلُّ العقول قبل الأرض.

تتعدَّد أسلحة الحرب النَّاعمة بين الإعلامِ المُوجَّه، والأفلام الَّتي تمُجّد العُنف والتَّحلُّل، والدّعاية المُروّجة للغرائز على حساب الأخلاق، وتجَّار المخدّرات والجنس الرَّخيص، الذين يخوضون حروبًا خفيَّة تُديرها عصابات مرتبطة بالدَّولة العميقة، والإرهاب الخائض حروبًا بالوكالة. وهذا كلُّه جعل هذه الحرب الجديدة أخطر من الحرب التَّقليديَّة؛ لأنَّها تُهاجم الرُّوح قبل الجسد، والثَّقافة قبل المُمتلكات.

وفي العالم الإسلاميّ، لا يكتفي هذا النَّمط من الحروب بذلك، بل يُضيف إليه محاولات نشر الطائفيَّة، وتشجيع الإدمان، وتقويض الأُسرة، وهي أدوات تُستخدم لإضعاف التَّماسك الدَّاخلي، وتسهيل الاختراق الخارجي. وبينما تُقاوم بعضُ الدُّول عبر الفنّ والثَّقافة المضادَّة هذه الموجات العاتية من الحروب غير التَّقليديَّة، تستمر القُوى الكبرى في توظيف الإرهاب والفوضى، ممَّا يجعل السَّاحة معركة مفتوحة بين الهُويَّة والتَّغريب.

من المُهمّ القول إنَّ الحرب النَّاعمة ليست جديدةً في جوهرها، فقد استخدمت الإمبراطوريَّات -عبر التاريخ- الثَّقافة والدّعاية من أجل السيطرة، لكنَّها اليوم تتَّخذ أبعادًا غير مسبوقة بفضل التّكنولوجيا ووسائل التَّواصل. فهي حربٌ غير مُعلنة، لكنَّ آثارها لا تخفى في: انهيار القيم، وفقدان للبوصلة الخُلُقيّة. وهنا، يُصبح السُّؤال مُلحًّا: كيف يمُكن للمجتمعات أن تُحصّن نفسها ضدَّ هذا العدوّ الخفي وغير المرئي؟ وكيف ينبغي لمطلب الوعي العميق، والإرادة الصُّلبة والاستراتيجيَّات المُبتكرة، الَّتي تجمع بين احترام الذَّات، والتَّمسُّك بالجُذور، ومواجهة التَّحديات الجديدة، أن تكون حاضرةً بقوة لمواجهة هذه التَّهديدات غير المسبوقة؟

سيُحاول البحث الذَّهاب في نطاق أوسع من أجل فهم الأُسس النَّظريَّة الَّتي انطلقت منها فكرة القُوَّة النَّاعمة، كما نظَّر لها فلاسفة الغربِ. وسيكون هذا موضوع الفصل الأوَّل من الكتاب. وفي الفصل الثَّاني، سنتوقَّف عند الصُّور المتعدّدة للقوَّة النَّاعمة، الَّتي تستخدمها الولايات المتحدة، والقُوى الغربيَّة في حروبها، اعتمادًا على بحوث الكتَّاب الغربيّين أنفسهم. أمَّا الفصل الثالث فسيكون عن مقاومة هذا الاجتياح الثَّقافي والفِكري الغربي، ووسائل الحرب النَّاعمة المضادَّة في المُستوَيَين: النَّظريّ والعمليّ.

قاسم شعيب

١٣ رمضان ١٤٤٦هـ / ١٣ مارس ٢٠٢٥م

الفصل الأوّل:

الإِطَارُ النَّظَريُّ لِمفهُومِ الحَربِ النَّاعِمَةِ

يُحاول مفهوم «القوَّة النَّاعمة»، الَّذي استخدمه الأكاديميُّ والباحث الأمريكيُّ، ومساعد وزير الدّفاع الأمريكيّ الأسبق (بيل كلينتون- Bill Clinton)، وصاحب كتاب "القوَّة النَّاعمة والطَّبيعة المتغيّرة للقوَّة الأمريكيَّة"، فتح آفاق الدَّولة الأمريكيَّة على مصادر أخرى للقوَّة؛ من أجل تركيز العمل عليها، وتقديمها على الاستخدام المُفرط والأُحادي للقوَّة الصُّلبة. وهذا يحتاج إلى معالجةٍ في مبحثين: الأوَّل يتناول الإطار العام لمفهوم القوَّة. وفيه تحديد لمفهوم القوَّة النَّاعمة وخصائصها وأسسها الفلسفيَّة والدّينيَّة والحضاريَّة. وفي المبحث الثَّاني تحليل للمنعطفات الفلسفيَّة والفِكريَّة للفكر الغربيّ المعاصر، وانبثاق فِكر ما بعد الحداثة والرُّؤية الليبراليَّة الجديدة. وهي المنعطفات الَّتي انبثقت عنها نزعة استهلاكيَّة وغريزيَّة منفلتة، ستمثّل جزءًا كبيرًا من أدوات الحرب النَّاعمة. أمَّا في المبحث الثَّالث فنتوقَّف عند مفهوم الدَّولة وثنائيَّة الحرب والسَّلام.

● المَبحَثُ الأَوَّل: أُسسُ مَفهُوم القوَّة النَّاعمَة

لم يخترع (جوزيف ناي - Joseph Nye) مصطلح القوَّة النَّاعمة، بل يعترف أنَّه سمعه في مؤتمر دافوس، بسويسرا سنة ٢٠٠٣، من (جورج كاري - George Carey) رئيس أساقفة كونتربري "Canterbury" الأسبق، عندما ضمنه سؤالاً لوزير الدفاع الأمريكي -حينها- (كولن باول- Colin Powel) عن سبب عدم استخدام أمريكا قوَّتها النَّاعمة، وتركيزها على القوَّة الصُّلبة[1]. ونستطيع القول إنَّ مضمون القوَّة النَّاعمة قديمٌ، ونجده لدى كلّ الأمم الَّتي امتلكت القوَّة بكل صورها، وفي كلّ الحضارات تقريبًا. وربمَّا الجديد فقط هو المُصطلح. وقد يُمكن أنْ نسميها القوَّة الخفيَّة، بسبب خفائها، أو القوَّة الماكرة بسبب استخدامها أساليب غير خُلُقيَّة تستهدف وعي الإنسان وسلوكه مثل: نشر الدَّجل والأكاذيب والإباحيَّة والمِثليَّة والمُخدّرات والإرهاب.

يرتبط مفهوم القوَّة بأبعادٍ كثيرةٍ. فالقوَّة قد تكون صلبة من خلال استخدام الأدوات الماديَّة، من جوارح، وأدوات، وأسلحة، وصواريخ، وطائرات، وقنابل. وقد تكون ناعمة عندما ترتبط بالعقل، والذَّكاء، والثَّقافة، أو بالمكر والدَّهاء. ورغم أنَّ الحضارات والدُّول القديمة لم تخلُ من استخدامٍ للقوَّة النَّاعمة في حروبها، لكنَّ هذا المفهوم أخذ زخمًا أكبر بكثير ممَّا هو مثبت

---

١ - جوزيف ناي: القوة الناعمة (وسيلة النجاح في السياسة الدولية)، ص٩.

في كتب التَّاريخ، وبات يشير إلى ما وصلت إليه الحضارة الغربيَّة من تقدُّم تكنولوجيّ، وتنوُّعٍ في الوسائل، وسهولة في الوصول من أجل تحقيق أهدافها. لم تستغنِ الدُّول الحديثة عن القوَّة العسكريَّة الصُّلبة، غير أنَّها أضافت إليها القوَّة النَّاعمة، وبات الاعتماد عليها واسعًا لاختراق الدُّول والشُّعوب الأخرى، وجعلها تفعل ما تريد.

أوَّلًا: مَفهومُ القوَّة النَّاعمة

يقصد (جوزيف ناي) بالقوَّة النَّاعمة: القدرة على استقطاب الآخرين، وتوجيه سلوكهم من خلال الجاذبيَّة الثَّقافيَّة والسياسيَّة ووسائل الإغراء، وإدخالهم ضمن الدَّائرة الثَّقافيَّة والسّياسيَّة الأمريكيَّة، بدلاً من الإكراه أو المال. وهو يُعرفها بأنَّها «القدرة على الحصول على ما تريد عن طريق الجاذبيَّة بدلاً من الإرغام أو دفع الأموال، وهي تنشأ من جاذبيَّة ثقافة ما ومُثلها السّياسيَّة وسياساتها»[1]. وهي تقوم على ثلاثة مصادر: ثقافتها في الأماكن التي تجذب فيها الآخرين، وقيمها السياسيَّة عندما ترقى إليهم في الدَّاخل والخارج، وسياساتها الخارجيَّة عندما يراها الأخرون شرعيَّةً وخُلُقيَّةً.

فهي تعتمد على الإبهار الثَّقافيّ والقِيَم السّياسيَّة والسّياسة الخارجيَّة.

---

١ - جوزيف ناي: القوة الناعمة، ص١٠.

وهي -على هذا النحو- تتجنَّب تحمُّل الخسائر البشريَّة والماديَّة للحرب الصُّلبة، الَّتي تعتمد شنَّ الحروب العسكريَّة المباشرة والحصار الاقتصاديَّ، وتسمح بالسَّيطرة والنُّفوذ، من خلال اختراق الوعي الجمعي للشُّعوب المُستهدفة.

والقوَّة النَّاعمة، حسب (ناي)، هي -على هذا الأساس- جعل الآخرين يريدون ما تريده أنت، وبهذه الطَّريقة تكسب النَّاس بدلاً من أن تُجبرهم؛ أي إنَّها القدرة على التَّأثير على الآخرين للحصول على النَّتائج المتوخَّاة[1]. ولذلك تستند القوَّة النَّاعمة إلى القُدرة على وضع برنامج سياسيّ يُرتّب الأولويّات بالنّسبة للآخرين على المستويين: الشَّخصي والعام، من خلال التَّربية والتَّعليم والإعلام، بدلاً من الضغط والتَّوبيخ والحصار، ومن خلال وضع جداول للعمل وتحديد أطر للنّقاشات المختلفة. فالقدرة على تحديد الأولويَّات ترتبط بمصادر القوَّة المعنويَّة، كالجاذبيَّة الثَّقافيَّة والمؤسَّسات المُنظمة والخطاب الأيديولوجي. والنَّجاح في جعل الآخرين يفعلون ما نريد برغبتهم هو نجاح في استخدام القوَّة النَّاعمة.

ثَانيًا: خَصائصُ القوَّة النَّاعمة

لا تعتمد القوَّة النَّاعمة على الإكراه من خلال التَّهديد والعقاب، وإنَّما

١ - جوزيف ناي: القوة الناعمة، ص٢٠.

على قوَّة الإغراء والجذب اللذان يقودان الطَّرف المُستهدف إلى التَّقليد، وقد تَستخدم التَّلقين والإقناع من خلال قوَّة الخطاب وجمال الصُّورة. والسُّؤال هو عن المضمون الَّذي تريد الولايات المتَّحدة والقُوى الغربيَّة تصديره إلى العالم، من خلال الإغراء الَّذي يتَّخذ صورًا متعدّدة: فنيَّة وسياسيَّة واقتصاديَّة. لا شك أنَّ التَّنظيرَ السّياسيَّ الغربيَّ قام منذ البداية على تغليب الرَّغبة على العقل، وباتت الثَّقافة الغربيَّة بمجملها قائمةً على إشباع الرَّغبات، وتحويل العقل والعلم والتّكنولوجيا إلى أدوات لتلبية الرَّغبة، وليس لرفع درجة الوعيّ، وتحقيق السّمو الخُلُقيّ، ونشر قِيَم العدالة والحريَّة والكرامة الحقيقيَّة.

تَستخدم الحرب النَّاعمة طرقًا خفيَّةً وماكرةً، وأساليبَ غير صِداميَّة لاستدراج الخصوم دون أن يُظهروا أيَّة مقاومة، وربمَّا صارت المقاومة لها مستهجنة لدى الجمهور الَّذي لا يعي عادةً مكر العدوّ، وينساق وراء غريزته الرَّاسخة.

بات الغرب، وأمريكا بشكل خاص، يلجؤون إلى هذا النَّوع من الحروب رغم أنَّهم لم يتخلوا عن الحرب الصُّلبة؛ حيث إنَّ أساليب الحرب النَّاعمة قد لا تكون فعالةً ولا تحقّق الأهداف الاستراتيجيَّة دون إظهار القوَّة العسكريَّة. بل إنَّ الحرب النَّاعمة كثيرًا ما تكون مقدمةً للحرب الصُّلبة؛ لأنَّ الحرب النَّاعمة تستهدف ثقافة النَّاس ووعيهم وأخلاقهم من أجل إضعافهم، وتحويلهم إلى كُتلة معادية لانتمائها الدّيني واللغويّ والثَّقافيّ،

وخلق هُوة بينهما. وهذا ما نراه في حروب أمريكا و«إسرائيل» في المنطقة. وقد نجحت الولايات الأمريكيَّة في الإطاحة ببعض الحكومات من خلال أساليب الحرب النَّاعمة، وما سُمّي بالثَّورات المُلوَّنة في أوروبا الشَّرقيَّة، والرَّبيع العربيّ في بعض دول المنطقة العربيَّة.

واستثمار القوَّة النَّاعمة للسَّيطرة على الشُّعوب ليس دائمًا فعَّالاً؛ فالمُستهدَف بهذه الحرب له أيضًا قوَّته النَّاعمة، كما هي معتقداته وثقافته ولغته واعتزازه بكل ذلك. وهذه القوَّة قد تكون حائطَ صدّ في المجتمعات الأكثر وعيًا بما يُخطَّط لها؛ ولذلك، تفشل الحروب الناعمة الَّتي تستهدف بعض المجتمعات، بفضل هذه القوَّة، وبفضل أساليب المقاومة.

لا تنفصل القوَّة النَّاعمة عن القوَّة الصُّلبة، رغم اختلافها في الأسلوب الَّذي يعتمد الجذب والإغراء، فالقوَّة الصُّلبة تجعل الآخر أكثر انبهارًا وخضوعًا وتقبُّلاً للسَّير في الطَّريق المرسوم له. وعادةً ما يقلّد الضَّعيف القويَّ، والمغلوبُ الغالبَ. وينطبق هذا الشيء على الأغلبيَّة السَّاحقة من النَّاس والشُّعوب؛ حيث إنَّ الَّذين يملكون الوعي والإرادة والرُّسوخ الثَّقافيَّ، ولا ينخرطون في الاستجابة لإغراءات العدو هم عادة قِلَّة.

إنَّ الدَّولة الَّتي تفتقد القوَّة الصُّلبة العسكريَّة والاقتصاديَّة، لا يمكنها أن تكون لها سياسات فعالة وقوَّة ناعمة مؤثّرة. وقد تتخلَّى عن وضع أيَّة «أجندات» من الأساس. فالضَّعيف -اقتصاديًّا وعسكريًّا- لا يمكنه التَّرويج لثقافته مهما بلغت من العقلانيَّة والقوَّة، ولا يستطيع جعل الآخرين يفعلون

ما يريد. وبكلمة أُخرى، تحتاج الثَّقافةُ القوَّةَ كي تنتشرَ.

وإذا كانت الدَّولة قويَّة، فإنَّ رغبة الآخرين في المقاومة ستضعُف. وهذا يعني أن بناء القوَّة الذاتيَّة الصُّلبة -اقتصاديًّا وعسكريًّا- يُعطي الدَّولة القدرة على استخدام قوَّتها النَّاعمة. والقوَّة النَّاعمة تحتاج إلى تقديم ثقافتها بشكل جذاب من خلال استخدام ما يُمكن من جماليَّات الصُّورة والكلمة، كما هي فنون الإعلام والثَّقافة والكتابة والخطاب والإخراج. ويمكن للدَّولة القويَّة على أساس ذلك، تأسيس قواعد دوليَّة تتماشى مع مجتمعها، ويرغب الآخرون في اتّباعها، ويُمكنها أن تشجّع دُولاً أُخرى على التَّحوُّل إلى ثقافتها من خلال الوسائل المفضَّلة لديها.

إنَّ قدرة الدَّولة القويَّة -اقتصاديًّا وعسكريًّا- تمكّنها من وضع قواعد مفضَّلة، ومؤسسات تحكم مناطق النَّشاط الدَّولي، وهي مصادر حاسمة للقوَّة مثل: قِيَم الديمقراطيَّة، والحريَّة الشَّخصيَّة، والانفتاح الثَّقافيّ، والتَّطوُّر السَّريع[1]. وعندما يتعلَّق الأمر بالقوَّة النَّاعمة الأمريكيَّة، فإنَّها ليست مجردَ ثقافة القوَّة في رأي (جوزيف ناي)، فالقِيَم الأمريكيَّة -كالديمقراطيَّة داخل المؤسَّسات الدَّوليَّة- يمكنها أنْ تجذب الآخرين، ولكنَّها يمكن أن تُنفّرهم منها أيضًا[2].

---

١ - جوزيف ناي: القوة الناعمة، ص٢٨.

٢ - جوزيف ناي: القوة الناعمة، ص٣٦- ٤٧.

والقوَّة النَّاعمة لا ترتبط بالحكومة رأسًا، كما ترتبط بها القوَّة الصُّلبة، رغم أنَّها تسهم في تحقيق أهدافها؛ حيثُ توجد مؤسساتٌ غير حكوميَّة: كشبكات التلفزيون الخاصَّة، ومنظَّمات المجتمع المدنيّ، مثل: منظَّمات المجتمع المفتوح الَّتي يديرها ويمولها (جورج سوروس George-Soros)، ومواقع التَّواصل الاجتماعيّ، وهوليوود، ومراكز البحوث المتعدّدة الاختصاصات.

ثَالِثًا: أُسُس الحَرب النَّاعمة

باتَت القوَّة النَّاعمة تُستخدَم على نطاقٍ واسعٍ في الحروب المعاصرة. وعندما تستخدم القوَّة النَّاعمة في مهاجمةً الشعوب الأُخرى، فإنَّ هذه هي الحرب الناعمة، الَّتي قد لا يعي حقيقتها أكثر الناس. لا تتحرَّك الحرب الناعمة في بُعدها السياسيّ في الفراغ، بل إنَّها تنطلق على أُسس فلسفيَّة وحضاريَّة ودينيَّة مُتجذرةٍ في تاريخ الفِكر الغربيّ، كما هي مفاهيم مثل: الفردانيَّة، والعلمانيَّة، والماديَّة. وهي تستند إلى رؤية حضاريَّة تُقدّم الغرب نَموذجًا عالميًّا، يجب على الآخرين اتّباعه ضمن ما يُعرف بالمركزيَّة الغربيَّة، الَّتي ترى في نفسها نقطة جذب محوريَّة، ينبغي على بقيَّة الشُّعوب أن تدور حولها. كما تتفاعل هذه الاستراتيجيَّة بصورةٍ معقَّدة مع الإرث الدّينيّ المسيحيّ، الَّذي يُبرر أحيانًا الهيمنة تحت شعارات «الرّسالة الحضاريَّة».

١. الأَساسُ الدّينيُّ: «المَسيحيَّة» والرّسالةُ الحضاريَّةُ

يلعب الإرث الدّينيُّ «المسيحيُّ» دورًا معقَّدًا في الحرب النَّاعمة. ويُظهر الفيلسوف البريطانيُّ (جون ستيوارت ميل -John Stuart Mill)، في كتابه "عن الحريَّة"، التَّأثير العرضيَّ لهذا الإرث، عندما يدعو إلى نشر "الحريَّة" بما هي قيمة عالميَّة، وهي فكرة تتشابك مع التَّبشير المسيحيّ، الَّذي يرى الغرب حاملاً لرسالة إنسانيَّة. وهذا الإطار ارتبط تاريخيًّا بالحملات التبشيريَّة إبان الحروب الاستعماريَّة، وفي العصر الحديث يتجلى في الحرب النَّاعمة، عبر التَّرويج للعلمانيَّة بديلاً للأديان المحليَّة، ممَّا يفصل المجتمعات عن جذورها الرُّوحيَّة.

وقد ركَّز المُفكّر الأمريكيُّ (صموئيل هنتنغتون -Samuel Phillips Huntington) (١٩٢٧-٢٠٠٨)، في كتابه "صراع الحضارات"، على البُعد الدّينيّ، عندما رأى أنَّ الصّراع بين الغرب والعالم الإسلاميّ هو صراعٌ حضاريٌّ، يتطلَّب أدوات ناعمةً لتغيير الهُويَّة الإسلاميَّة. وهو يشير إلى أنَّ الغرب يستخدم ثقافته لفرض قِيَمه، ممَّا يُحيل إلى الكيفيَّة الَّتي تُستخدم بها العَلمانيَّة سلاحًا لإضعاف الدّين، الَّذي يبقى عامل تماسك رُوحيّ واجتماعيّ لا غنى عنه.

٢. الأَساسُ الفَلسفيُّ: الفَردَانيَّة والعَقلانيَّةُ

تُعتبر الفلسفة الغربيَّة الحديثة، الَّتي بدأت مع عصر التَّنوير الأوروبيّ، الأساس الفِكريَّ للقوَّة النَّاعمة. فقد أسَّس (جون لوك -John Locke)

(١٦٣٢-١٧٠٤)، للنَّزعة الفردانيَّة بما هي قيمة مركزيَّة، مُعتبرًا الحريَّة الفرديَّة جوهر التَّقدُّم البشريّ. فـ "الحريَّة الطبيعيَّة للإنسان هي أن يكون حرًّا من أي قوَّة عليا على الأرض، وألَّا يكون تحت إرادة الإنسان أو سلطته التشريعيَّة، بل أنْ يخضع فقط لقانون الطَّبيعة في حُكمه"[1]. وهذه الرُّؤية تتجلَّى اليوم من خلال الحرب النَّاعمة، الَّتي تروّج لمقولة الحريَّات الشَّخصيَّة مثل: التحرُّر الجنسي والإلحاد؛ لتكون وسائل لفصل الأفراد عن تقاليدهم المحافِظة، وتسهيل اختراق المجتمعات.

لا شكَّ أنَّ الحريَّة هي جوهر التَّقدُّم الإنسانيُّ، لكن ليس بالمعنى الَّذي يريده (جون لوك) للحريَّة، بل بالمعنى القِيَمي العميق، الَّذي يعني سلطة الإنسان على نفسه من خلال سيطرة العقل على فِكره وقراراته وسلوكه. إنَّ ماهيَّة الحريَّة هي الالتزام القِيَمي بتطبيق مبادئ الحقّ والعدالة والخير في أحكامه ومواقفه. فيجب ربط الحريَّة بالعقل وليس بالرغبة، وبالفضائل وليس بالرَّذائل. والخضوع للميول والأهواء والشهوات ليست حريَّة، بل عبوديَّة مقنَّعة، أراد الغرب إقناع نفسه أنَّها حريَّة.

ويحاول (إيمانويل كانط Immanuel Kant-) (١٧٢٤-١٨٠٤)، في كتابه "نقد العقل المحْض"، إضفاء بعد عقلانيّ على هذه النَّزعة الفردانيَّة، لكنَّ الأمر لا يتَّسق؛ حيث إنَّ الفردانيَّة لا ترتبط بالعقلانيَّة بقدر ما ترتبط بالنَّزعة الغريزيَّة

١ - جون لوك: في الحكم المدي، الفقرة ٤.

بعد انفكاكها عن الرَّقابة الاجتماعيَّة، وانفصالها عن الرَّادع الدّينيّ الدَّاخليّ. فهو يمُجّد العقلَ الَّذي يعتبره أساسَ الحضارة، ليُبرّر نشر العلمانيَّة بدلاً عن الدّين في المجتمعات الغربيَّة، في ذلك الحين بعد فشل حكم البابوات.

ورغم أنَّ النَّزعة العقلانيَّة، الَّتي بشَّر بها (كانط)، لم تكن أكثر من محاولة لتوظيف العقل، من أجل إنتاج أساس نظريّ لتبرير الاتجاه نحو الفردانيَّة الطَّاغية، لكنَّ هذا الإطار -الَّذي اعتُبر نَموذجًا عقلانيًّا متفوّقًا- يُستخدم في الحرب النَّاعمة لتشكيك المجتمعات المختلفة في معتقداتها، من أجل تفكيك الهُويَّات الثَّقافيَّة، وأخذها إلى المكان الَّذي يريده الغرب.

ومن الطَّبيعيّ، تبعًا لهذه الرُّؤية، أنْ تكون الأخلاق خاضعةً للسّياسة. فالغاية تُبرّر الوسيلة في الفكر الغربيّ، كما نظر لذلك (ماكيافيلي -machiavelli) في كتابه "الأمير". وهو ما يعني أنَّ السياسيَّ حرٌ في استخدامه كلّ الوسائل المُمكنة، لتحقيق أهدافه الدَّاخليَّة مع الخصوم الدَّاخليّين، أو الخارجيَّة مع الأعداء الخارجيّين. ولا مشكلة حينئذ، في نهب ثروات الآخرين وقتل المدنيّين، ولا محظور في استخدام الأكاذيب والخِداع. ولأجل ذلك يستخدم الغرب في الحرب النَّاعمة كلَّ الأساليب غير الخُلُقيَّة لتحقيق أهدافه.

٣. الأساسُ الحَضاريُّ: نَزعةُ التَّفوُّق والاستِعمَارِ الثَّقافي

لا تكتفي مقولة الحرب النَّاعمة بالانطلاق على أساس الموقف الفلسفيّ للغرب الحديث، بل تستند أيضًا إلى إرثٍ حضاريّ يرى في

الغرب مركزًا للعالم. وقد قدَّم (جورج فيلهلم هيغل - Georg Wilhelm Friedrich Hegel) (١٧٧٠-١٨٣١)، في كتابه "فلسفة التاريخ"، رؤية تاريخيَّة، تُصوّر الغرب ذروةً للتَّقدُّم الحضاريّ. يرى (هيغل) أنَّ الدُّول غير الغربيَّة متخلفة، وتحتاج إلى الارتقاء نحو النَّموذج الأوروبيّ. وهذه الرُّؤية المحشوة بنزعةٍ شوفينيَّة مكشوفة، تُترَجم اليوم من خلال الحروب النَّاعمة، الَّتي تريد فرض الثَّقافة الغربيَّة معيارًا عالميًّا، ممَّا يهمّش التَّقاليد المحليَّة، ويعمّق الهيمنة الثَّقافيَّة. وقد ذهب (فرنسيس فوكوياما -Francis Fukuyama)، إلى أنَّ "الديمقراطيَّة الليبراليَّة الغربيَّة هي النّهاية الطبيعيَّة للتَّاريخ"[1]، داعيًا إلى نشرها. وهذا يُحيل إلى الكيفيَّة الَّتي تُستخدم بها الثَّقافة والإعلام، لاختراق وعي الشُّعوب والتَّحكُّم بها، وإقناعها بتفوُّق النَّموذج الغربيّ، وتبنّيه بدلاً من الثَّقافة المحليَّة.

● المَبحَثُ الثَّاني: مُنعطَفاتُ الفكر الغَربي

خضع الفِكر الغربيُّ لتَطوُّرات كثيرةٍ بسببَ المآزق الَّتي واجهها الغربيون في كلّ المجالات. وهو ما أدَّى في النّهاية إلى ظهور اتّجاهات جديدة، ورؤى مختلفة، تحاول معالجة تلك المشكلات المستجدَّة، لكنَّها غرقت أكثر في نزعات غريزيَّة واستهلاكيَّة، إلى درجةٍ جعلت كثيرين يُنظّرون

١ - فوكو ياما: نهاية التاريخ والإنسان الأخير، ص١١-١٣.

لموقفٍ فكريّ جديد، يتحدَّث عن ما بعد العلمانيَّة. وهذا الاتّجاه الغارق في المنحى الغريزيّ والنَّزعة الاستهلاكيَّة، سيُستخدَم بوصفه جزءًا من القوَّة النَّاعمة لاختراق المُجتمعات الأخرى. وسيركّز هذا المبحث على رؤيتين ضمن هذه المنعطفات؛ الأولى تتعلَّق بظهور فكر ما بعد الحداثة، والثَّانية تتناول تكوُّن نظريَّة الليبراليَّة الجديدة.

أوَّلًا: صُعودُ فِكر ما بعدَ الحداثَة

انتهى فكر ما بعد الحداثة، إلى تفكيك المفاهيم الخُلُقيَّة والقِيَميَّة المطلقة، وتعميق النَّزعة الغريزيَّة المُفرطة، الَّتي أنتجت تحلُّلًا خُلُقيًّا واسعَ النّطاق. وهذا الفِكر، بنزعته النّسبيَّة ورفضه للقِيَم الكُبرى، فتح الباب أمام انتشار الإباحيَّة، والمثليَّة الجنسيَّة، والإدمان، وضياع الأخلاق الكريمة بين النَّاس. وهذا التَّحوُّل، يمُثّل جزءًا من استراتيجيَّة فكريَّة، أعادت تكوين العلاقات الاجتماعيَّة والإنسانيَّة بطرق أثارت جدلًا واسعًا.

ويشير الباحث الفرنسي (جان بودريار -Jean Baudrillard) (١٩٢٩ – ٢٠٠٧)، أحد روَّاد ما بعد الحداثة، في كتابه "الصُّورة والمحاكاة"، إلى أنَّ العالم المُعاصر، يعيش في واقع افتراضيّ يُلغي الحدود بين الحقيقة والوهم، ممَّا يُشجّع على الانغماس في الرَّغبات دون قيود خُلُقيّة[1]. هذا

١ - جان بودريار: الصورة والمحاكاة، ص١-١٠.

التَّفكيك للمُطلَقات، وفقًا لـ (بودريار)، أنتج ثقافةً تُمجّد اللحظة الغريزيَّة على حساب القِيَم الثَّابتة، ممَّا مهد الطَّريق لتطبيع الإباحيَّة والسُّلوكيَّات غير التَّقليديَّة. من هذا المنظور، يُمكن اعتبار ما بعد الحداثة محفّزًا للتَّحلُّل الخُلُقيّ.

وفي السّياق ذاته، ينتقد (روجر سكروتون -Roger Scruton) هذا الاتّجاه في كتابه "الثَّقافة الحديثة"؛ حيثُ يرى أنَّ "ما بعد الحداثة، بنزعتها إلى رفض المعايير التَّقليديَّة، أفرزت ثقافة تحتفي بالفردانيَّة المُفرطة والتَّحرُّر الجنسيّ، ممَّا أدَّى إلى تفكُّك الرَّوابط الأسريَّة والاجتماعيَّة"[1]. ويربط (سكروتون) بين هذا الفكر، وارتفاع معدَّلات الإدمان والمثليَّة، على حساب الأخلاق الحميدة، الَّتي كانت تُعتبر أساس التَّماسُك الاجتماعيّ.

أمَّا الباحثة الأمريكيَّة (جايل داينز-Gail Dines)، فتضيف بُعدًا آخر؛ حيثُ تؤكّد أنَّ الإباحيَّة باعتبارها ظاهرة حديثة، استفادت من الخطاب ما بعد الحداثيّ، الَّذي يرفض الحكم الخُلُقيَّ، ممَّا جعلها تتغلغل في الثَّقافة الشَّعبيَّة، بوصفها تعبيراً مقبولاً عن الحُريَّة[2]. وهذا التَّطبيع -وفقًا لـ (دينز)- لم يكن مجرَّد نتيجة عفويَّة، بل انعكاسًا لفلسفة تُعطي الأولويَّة للمتعة الفرديَّة على القِيَم الجماعيَّة، ممَّا أدَّى إلى انهيار الحدود الخُلُقيَّة.

---

١ - روجر سكروتون: الثقافة الحديثة، ص٣٠-٤٣-١٢٠-١٣٠.

٢ - جايل داينز: أرض الإباحية (كيف اختطفت الإباحية حياتنا الجنسية)، ص٤٨.

من جهةٍ أخرى، يرى المفكّر الكنديُّ (تشارلز تايلور Charles-Margrave Taylor)، في كتابه "خُلُقيّات الأصالة"، أنَّ ما بعد الحداثة أنتجت أزمةً خُلُقيَّة بسبب تركيزها على الذَّاتيَّة المُطلقة؛ حيثُ أصبحت الرَّغبات الشَّخصيَّة تتفوَّق على المسؤوليَّة الاجتماعيَّة[١]. ويُحذّر (تايلور) من أنَّ هذا الانحياز للغرائز، أفرز مجتمعات تفتقر إلى التَّضامن، مع تزايد الإدمان وسلوكيَّات تُعزّز الانفصال بين الأفراد.

وعلى النَّقيض من ذلك، يدافع بعض مُنظّري ما بعد الحداثة، عن هذا الفكر باعتباره «تحرُّرًا من القيود الظَّالمة»، لكنَّ النَّاقد الأمريكيَّ (فريدريك جيمسون Fredric Ruff Jameson-) (١٩٣٤ - ٢٠٢٤) في كتابه "ما بعد الحداثة، أو المنطق الثَّقافي للرأسماليَّة اللاحقة"، يرى أنَّ هذا التَّحرُّر ليس إلَّا وهمَ الرأسماليَّة المتأخّرة؛ حيث تُستغل النزعات الاستهلاكيَّة لخلق أسواق جديدة، ونشر ممارسات غير سويَّة مثل: الإباحيَّة والمخدّرات[٢]. يُعزّز هذا التَّفسير فِكرة أنَّ التَّحلُّل الخُلُقيَّ ليس نتيجةً عرضيَّةً بل جزءًا من زخم نشاط أكبر.

وبشكل عام، يُظهر المفكّرون الغربيُّون أنَّ فكر ما بعد الحداثة، بانحيازه للاتّجاه الغريزيّ، أسهم في إنتاج تحلُّل خُلُقيّ شمل الإباحيَّة والمِثليَّة

---

١ - تشارلز تايلور: أخلاقيات الأصالة، ص١٧.

٢ - فريدريك جيمسون: ما بعد الحداثة أو المنطق الثقافي للرأسمالية اللاحقة، ص٤-٥٥.

والإدمان، وفقدان الأخلاق الحميدة. وهذا التَّأثير يُثير تساؤلات عن دوره باعتباره أداة في الحرب النَّاعمة، ممَّا يستدعي إعادة تقويم لتداعياته على المجتمعات المعاصرة.

ثَانيًا: ولَادةُ الليبراليَّة الجَديدَة

شهد العالم بين عاميّ ١٩٧٨ و١٩٨٠، تحوُّلات هائلة على المستويين: الاجتماعيّ والاقتصاديّ للعالم. ففي عام ١٩٧٨، اتَّخذ الرَّئيس الصّينيُّ -حينها- (دينغ شياوبينغ -Deng Xiaoping) الخُطوات الأولى المهمَّة نحو تحرير الاقتصاد، الَّذي كانت تحكمه النَّظريَّة الاشتراكيَّة في بلد يمُثّل خُمس سكان العالم. حدَّد (دينغ) مسارًا جديدًا، يتلخَّص في تحويل الصّين في غضون عِقدين من الزمان، إلى دولة رأسماليَّة ومركزًا مفتوحًا للديناميكيَّة الاقتصاديَّة، الَّتي حقَّقت معدلات نموٍّ غير مسبوقة في التاريخ الحديث.

وفي سنة ١٩٨٠، انتُخِب (رونالد ريغن - Ronald Reagan) رئيسًا للولايات المتَّحدة، فاتّجه إلى تحرير الصّناعة والزّراعة واستخراج الموارد، وتحرير قُوى التَّمويل على الصَّعيدين: الدَّاخليّ والعالميّ. وبهذه الخُطوات الصّينيَّة والأمريكيَّة المتزامنة، تحرَّكت موجات الليبراليَّة الجديدة، لتنشر ترددتها في أنحاء مختلفة من العالم.

تُحيل الليبراليَّة الجديدة إلى رؤيةٍ جديدة للممارسات الاقتصاديَّة

السّياسيَّة، تقول إنَّ رفاهة الإنسان يمُكن تحقيقها على نحو أفضل من خلال إطلاق الحريَّات، والمهارات الفرديَّة في مجال ريادة الأعمال، داخل إطار مؤسَّسيّ، يطلق حقَّ الملكيَّة الخاصَّة والأسواق الحرَّة والتّجارة الحرَّة، بينما يتحوَّل دور الدولة إلى حارس للنّظام العام، ومؤسسات الدَّولة من خلال القوَّة الشُّرطيَّة والأمنيَّة، لتأمين الملكيَّة الخاصَّة، وضمان الأداء السليم للأسواق، وإنشاء أسواق أخرى لم تكن موجودة للأراضي والمياه والتعليم والرعاية الصحيَّة والضمان الاجتماعي والتَّلوُّث البيئيّ. ولا بدَّ من إبقاء تدخُّل الدَّولة في كلّ هذه المجالات الاقتصاديَّة في حدّه الأدنى.

تؤيّد الليبراليَّة الجديدة، حقوق الملكيَّة الفرديَّة القويَّة، وسيادة القانون والأسواق الحرَّة. وهي تؤكّد على أهميَّة الالتزامات التعاقديَّة، وحقوق الأفراد في حريَّة العمل والاختيار والتَّعبير. وعلى الدَّولة ضمان كل ذلك من خلال وسائل الإكراه الَّتي تحتكرها مثل حصريَّة استخدام العُنف. فالحريَّة الفرديَّة يجب أن تكون مرتبطة بالمسؤوليَّة. وهذه الحقوق تمتدُّ لتشمل: مجالات الرّعاية الاجتماعيَّة والتَّعليم والصّحة والمعاشات التَّقاعُديَّة.

رفعت الليبراليَّة الجديدةُ مستوى القوَّة متعددة الأشكال، لدى الغرب عمومًا، والولايات المتَّحدة خصوصًا. فقد شهدت العقود الماضية تطوُّرًا مذهلاً في المجالات العلميَّة والتّقنية والهندسيَّة والعسكريَّة المختلفة. أعطى هذا التَّطوُّر للدُّول الرَّأسماليَّة -الَّتي باتت تتبنى الليبراليَّة الجديدة منذ بداية ثمانينيات القرن العشرين- زخمًا جديدًا لقوَّتها النَّاعمة؛ إذ إنَّ

القوَّة النَّاعمة ليست من إفرازات الليبراليَّة الجديدة بشكل حصريّ؛ لأنَّ الدَّولة القويَّة، كما يمكن أن تكون ليبراليَّة جديدة ورأسماليَّة، يُمكن أن تكون اشتراكيَّة وإسلاميَّة وغير ذلك.

تُركّز الليبراليَّة الجديدة أكثر على إصلاحات السُّوق، والحريَّة الاقتصاديَّة، والتَّقليل من تدخُّل الدَّولة. وإنْ كانت الليبراليَّة الجديدة تُشجّع على بعض العناصر، الَّتي تُسهم في القوَّة النَّاعمة مثل: الحريَّة الاقتصاديَّة والتَّعليم، فهي لا تملك حصريَّة مفهوم القوَّة النَّاعمة.

إنَّ مفهوم القوَّة النَّاعمة، كما طُرح من قِبل (جوزيف ناي) في التّسعينيَّات، ليس جديدًا تمامًا في مضمونه، بل إنَّ الفِكرة نفسها، الَّتي تتلخص في استخدام الثَّقافة والقِيَم للتَّأثير على الأُمم الأخرى قديمة؛ حيث استُخدمت مثل هذه الاستراتيجيَّات على مدى قرون ماضية.

يُمكن لأيّ دولة أو جهة أن تستخدم القوَّة النَّاعمة، فهي شيء عالميٌّ لا يرتبط بدولة أو أيديولوجيا، ويُمكن لأيّ دولة أو جهة أن تستخدمه، سواء أكانت دولة نيوليبراليَّة أم غيرها. فالقوَّة النَّاعمة تتمثَّل في الجاذبيَّة الثَّقافيَّة، وسحر القِيَم، وإغراء السّياسات.

وعلى هذا الأساس، لا يمكن النَّظر إلى القوَّة النَّاعمة باعتبارها إفرازًا حصريًّا لليبراليَّة الجديدة؛ لأنَّها أقدم من ذلك بكثير. وهي أداة استراتيجيَّة، يمكن أن تستخدمها نُظم سياسيَّة واقتصاديَّة مختلفة، وفي سياقات متنوّعة.

● المَبحثُ الثَّالثُ: الدَّولَة وثُنائيَّة الحرب والسَّلام

لم تتوقَّف النّزاعات بظهور الدَّولة، بل إنَّ تلك النّزاعات، الَّتي كانت تحدث بين الأفراد والقبائل، الَّتي تعيش حالة ما قبل الدَّولة، انقلبت إلى حروب بين الدُّول بعد ظهورها. وهذه مفارقة؛ فقد جاء الأنبياء (ع) بالقوانين، وبعضهم حكم العالم من خلالها -كما هي حالة (داوود) و(سُليمان)- واستطاعوا بذلك منع الحروب، لكنَّ استيلاء خصومهم الوثنيّين على السُّلطة من بعدهم أعاد النَّاس إلى مربعات الحروب. ولأنَّ أكثر الَّذين حكموا دولاً خلال التَّاريخ كانوا وثنيّين، وخاضوا الحروب دون توقُّف، ربط بعض الغربيّين بين الدَّولة والحرب، وجعل العلاقة بينهما جدليَّة. وتحدَّث آخرون عن ثنائيَّة الحرب والسَّلام، كما فعل (إيمانويل كانط). ثمَّ ظهرت لاحقًا نظريَّة أجيال الحروب، الَّتي أطلقها المُنظّر العسكريُّ الأمريكيُّ (وليم إس. ليند -William S. Lind).

أوَّلًا: جدليَّةُ الدَّولةِ والحربِ

عندما يُذكر (تشارلز تيلي -Charles Tilly) (١٩٢٩-٢٠٠٨) و"تشكيل الدَّولة"، فإنَّ أوَّل ما يتبادر إلى الذّهن هو غالبًا سطره الشَّهير "الحرب صنعت الدَّولة والدَّولة صنعت الحرب"[1]. فهو يربط ربطًا جدليًّا بين

1 - Charles Tilly, Coercion, Capital, and European States, p19.

الحرب والدَّولة ظهورًا وضمورا، كما في كتابه «الإكراه ورأس المال والدُّول الأوروبيَّة»؛ حيثُ استخدم صيغة «مزيد من الحرب، ومزيد من الدَّولة». فالحرب تفرض خلق بِنية تنظيميَّة مركزيَّة للدَّولة، والدَّولة تطوّر وسائل الحرب لتأكيد نفوذها وهيمنتها.

إنَّ «اللحظات الكُبرى في نمو وتحوُّل دول بعينها، ونظام الدَّولة الأوروبيَّة ككل» تتوافق «مع الحرب والاستعداد للحرب»[١]. وبسبب التَّكوينات الخاصَّة للطَّبقات الاجتماعيَّة، والتّكنولوجيا العسكريَّة، والعلاقات بين الدول، وما إلى ذلك، يتعيَّن علينا أن نتوقَّع أنَّ «الحرب والاستعداد للحرب» قد تُقوّض قدرة الأجهزة المركزيَّة للدَّولة[٢].

وهذا لا يعني أنَّ (تيلي) يُقلّل من أهميَّة القُوى الاقتصاديَّة في تحوُّل الدَّولة الأوروبيَّة. فالعمليَّات الاقتصاديَّة تلعب دورًا حاسمًا في هيكلة الفرص والقيود، الَّتي تواجه أولئك الَّذين يتفاوضون بشأن المطالب المرتبطة بالحرب. وهذا ما دفع بعض الفلاسفة إلى التَّفكير في مخارج تُمكّن من الولوج إلى حالة السَّلام الدَّائم، ومنع اندلاع الحروب، كما فعل الفيلسوف الألماني (إيمانويل كانط).

1 - Charles Tilly, Coercion, Capital, and European States, p35.

2 - Charles Tilly, Coercion, Capital, and European States, p3536-.

ثَانيًا: ثُنائيَّة الحَرب والسَّلام

كتب (إيمانويل كانط)، بشكلٍ معمَّق، في جدليَّة الحرب والسَّلام، في إطار فلسفته الخُلُقيَّة والسّياسيَّة. وخصَّص لذلك كتابه «السَّلام الدَّائم: مشروع فلسفيٌّ». جعل (كانط) فكرة الواجب الخُلُقيّ بوصلة لرؤيته للسَّلام وإمكانات تحقيقه، واعتبر أنَّه نتيجة منطقيَّة للطَّبيعة البشريَّة والتَّنظيم السّياسيّ.

يَنظُر (كانط) للإنسان باعتباره مُركَّبًا من ثنائيَّة العقل والغريزة. وتنشأ الحرب -في نظره- بسبب الجانب الغريزي الأنانيّ، الَّذي تحكمه الرغبة في السُّلطة، والشَّهوة في النُّفوذ، والصّراع على الثَّروات والموارد. لكنَّ العقل يُمكنه التَّغلُّب على هذا الاندفاع من خلال التَّفكير الخُلُقيّ والتَّنظيم السّياسيّ الرَّشيد.

لا يُنكر (كانط) أنَّ الحروب -رغم كونها مدمّرة- دفعت البشريَّة نحو تكوين مجتمعات منظَّمة وبناء دول. لكنَّه لا يمجّدها، بل يرى ضرورة تجاوزها نحو حالة من السَّلام والنّظام. وليس السَّلام مجرَّد غياب الحرب، بل هو حالة إيجابيَّة تُبنى على أساس العدالة والأخلاق. فتحقيق السَّلام واجب خُلُقيٌّ يتماشى مع القانون الخُلُقيّ، ويدعو إلى معاملة الآخرين بما هم غايات، وليس باعتبارهم وسائلَ.

والسَّلام على هذا النحو، هو نتيجة لاستخدام العقل العمليّ في العلاقات بين الأفراد والدُّول. فـ «الحالة الطبيعيَّة بين الدُّول، مثلها مثل

الأفراد، هي حالة حرب.. ولذلك يجب أن يخرجوا منها إلى حالة قانونية ... إنَّ السَّلام الدَّائم ليس فكرة فارغة، بل مَهمّة تُحل تدريجيًّا وتقترب من تحقيقها»[1].

والسَّلام الَّذي يتحدَّث عنه (كانط) هو السَّلام الدَّائم، القائم على مبادئ عقلانيَّة وفي إطار مؤسَّسات دوليَّة. فهو يرفض السَّلام المؤقَّت كما هي الهدنة. ولأنَّ السَّلام يستند إلى مبادئ عقلانيَّة، فإنَّه -في نظره- ليس حالة طبيعيَّة وتلقائيَّة، بل هو إنجاز يتطلَّب وعيًا وإرادة وجهدًا.

ولتحقيق السَّلام الدَّائم يقترح (كانط) مجموعة من المواد الأوليَّة؛ منها:

١. علانيَّة معاهدات السَّلام وعدم احتوائها على بنود سرّيَّة؛ لأنَّ ذلك قد يُولّد حروبًا جديدة.
٢. لا يجوز لدولة أخرى أن تضمَّ إليها دولة أخرى بالقوَّة؛ لأنَّ ذلك ينتهك استقلالها، في حين أنَّه من الضَّروريّ احترام سيادة الدُّول، وعدم التَّدخُّل في شؤون بعضها البعض. ولضمان هذا السَّلام يدعو (كانط) إلى تقليص حجم الجيوش تدريجيًّا، لأنَّ ضخامتها تشجّع على الحرب.

ويضع (كانط) من ضمن المواد الأوليَّة أيضًا، حظر الدُّيون الوطنيَّة

1 - Kant: Political Writings, p9394-.

لأغراض الحرب؛ لأنَّ التَّمويل السَّهل للحروب يشجّع عليها، ويُقوّي احتمال اندلاعها. كما يدعو إلى تجنُّب الأعمال العدائيَّة، ويُطالب بضوابط خُلُقيَّة للحرب، حتَّى أثناء الصّراع، وقبل العودة إلى السَّلام.

ومضافًا إلى المواد الأوليَّة، يضع (كانط) موادَّ نهائيَّة للسَّلام هي بمثابة الشُّروط الرئيسة؛ منها: ضرورة وجود دستور جمهوريّ، فـ "الدُّستور المدنيُّ في كلّ دولة يجب أن يكون جمهوريًّا؛ لأنَّ الجمهوريَّة فقط، بفضل مفهومها الأصلي عن القانون، هي الَّتي تتوافق مع فكرة الحريَّة البشريَّة"[1]، وتسمح بمشاركة المواطنين في اختيار ممثّليهم واتّخاذ القرار؛ لأنَّ الشَّعب هو الَّذي يتحمَّل ويلات الحرب قبل غيره، ويُفضّل السَّلام.

وهو يقترح إنشاء «اتحاد الدُّول الحرة» فيما يُشبه عصبة الأمم والأمم المتَّحدة لاحقًا، ويضمُّ الدُّول الَّتي تلتزم بالسَّلام وتحترم القانون الدَّولي، على أن يكون اتّحادًا طوعيًّا، وليس حكومة عالميَّة مركزيَّة. ولا يُهمل (كانط) الدَّعوة إلى السَّماح للأفراد بالتَّنقُّل والسّياحة لزيارة الدُّول الأخرى، محتفظين بكامل احترامهم، ممَّا يفتح المجتمعات على بعضها، ويسمح بالتَّفاهم المتبادَل، ويقلّل من الصّراعات والحروب والنّزاعات.

بَنى (كانط) أفكاره على أساس فلسفيّ يتعلَّق بمبادئ العقل العمليّ، الَّتي تقول إنَّ السَّلام ممكن؛ لأنَّ البشر قادرون على استخدام عقولهم

١ - إيمانويل كانط: نحو السلام الدائم (مشروع فلسفي)، ص٣٤-٣٥.

لتجاوز مصالحهم الضيّقة، ولأنَّ القانون الخُلُقيَّ يقول إنَّ الواجب يُحتّم على الدُّول والأفراد السَّعي للسَّلام، بما هو غاية عقلانيَّة. فالتَّاريخ يتَّجه نحو التَّقدُّم، والسَّلام الدَّائم هو الهدف النّهائي للعقل البشريّ، رغم أنَّ ذلك يحتاج وقتًا وجهدًا.

لكنَّ رؤية (كانط) للسَّلام الدَّائم وُصفت بأنَّها مثاليَّة، رغم إطارها الفلسفيّ الَّذي يدَّعي العقلانيَّة. ولا شكَّ أنَّ الإنسان يتنازعه جانبان: الأوَّل عقلانيٌّ والثَّاني شهوانيٌّ. وانتصار العقل في هذا الصّراع ليس في متناول أغلب النَّاس، الَّذين يتصرَّفون وفق غرائزهم وميولهم ومصالحهم الضيّقة غالبًا، ولا يقبلون بأحكام العقل. ولأجل ذلك، فإنَّ السَّلام الدَّائم يحتاج القوَّة والحرب لتحقيقه. والَّذي يقود تلك الحرب من أجل السَّلام يجب أن يكون عقلانيًّا بشكل كامل؛ بحيثُ لا مكان لديه للأهواء والانفعالات. وهذا يقودُنا إلى القول إنَّ السَّلام الدَّائم يحتاج بناء الدَّولة العالميَّة الواحدة. وقبل تحقيق ذلك ستستمرُّ الحروب.

افترض (كانط) أنَّ العقل العمليَّ والواجب الخُلُقيَّ، يُمكن أن يتغلَّبا على نزعة الأنانيَّة والصّراعات التاريخيَّة، والذّهاب إلى تثبيت السَّلام الدَّائم. وهذا التَّفاؤل يتجاهل طبيعة الإنسان والدوافع غير العقلانيَّة مثل: الخوف والطَّمع والتَّعصُّب، والَّتي غالبًا ما تقود إلى خوض الحروب. وفي الوقت نفسه، لم يقدّم رادعًا موضوعيًّا يصدُّ الإنسان من الظُّلم والاعتداء. وهذا شيء لا يُقدّمه سوى الدّين النَّبوّي، الَّذي يجعل تحقيق رغبات

الإنسان الكاملة في عالم آخر غير هذا العالم. فمصلحة الأنا بحسب الدّين الإسلاميّ لا تكمن في هذه الحياة المحدودة، بل في حياة أخرى ممتدة خالدة؛ حيث يُكافأ على إيمانه وعدله وإنصافه وحسن أخلاقه.

إنَّ فكرة (كانط) القائلة إنَّ الدَّساتير الجمهوريَّة ستقلّل من الحروب؛ لأنَّ الشَّعب سيرفضها تفترض أنَّ الشُّعوب عقلانيَّة ومسالمة بصورة دائمة، بينما في الواقع، هي سطحيَّة وغوغائيَّة، لا تدرك الحقَّ ولا تنصره في أغلب الأحيان.

ويُظهر التَّاريخ أنَّ الديمقراطيَّات الغربيَّة هي أكثر من شنَّ الحروب في القرون الثَّلاثة الأخيرة؛ مثل الحروب الاستعماريَّة، الَّتي خاضتها فرنسا وبريطانيا وألمانيا وإيطاليا وهولندا وإسبانيا والبرتغال، والحربين العالميتين الأولى، والثَّانية، وكذلك حروب أمريكا المتعددة. وكثير من تلك الحروب كانت بدعم شعبيّ. وهذا المعنى ينسجم مع موقف (هوبز) أو (ماكيافيلي)، الَّذي يرى في الصراع انعكاسًا للطَّبيعة البشريَّة.

والحقيقة، إنَّ الحرب ليست سيئة دائمًا، فقد تكون ضروريَّة للدفاع عن النَّفس والأرض، عندما تتعرَّض البلاد للغزو؛ إذ دون ذلك لا شيء غير الاستسلام. وقد تكون أداة لرفع الظُّلم الَّذي تمارسه بعض الحكومات ضدَّ شعوبها، كما يُمكن اللجوء إليها لنشر الحقائق، والقيم الرَّفيعة بين الشُّعوب. وهذا هو موقف الإسلام، الَّذي يُميّز بين نوعين من الحروب: دفاعيَّة وهجوميَّة، ولكل منها شروط؛ حيثُ قال -تعالى-: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ**

﴿يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]. وقال أيضًا: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].

أمَّا مفهوم «الاتّحاد الحر»، الَّذي طرحه (كانط) باعتباره هيئة تحكيميَّة لحلّ النّزاعات ومنع الحروب، فهو يُشبه عُصبة الأمم والأمم المتَّحدة، الَّتي ظهرت بعد الحربين الأولى والثَّانية تباعًا. ولكنَّها فشلت في منع أيَّة حروب، بل إنَّ الحروب مع وجودها كانت أشرس.

والحكومة العالميَّة، الَّتي رفضها (كانط) تبدو لنا الحلَّ الوحيد لإيقاف النّزاعات والحروب والصّراعات، شرط أنْ تحكمَ العالم قيادة حكيمة وعالمة وعادلة. ورغم أنَّ هذا طموح صعب المنال، في رأي كثيرين، لكنَّ الرَّسل والأنبياء عليهم السلام بشَّروا به. فنحن لا نكاد نجد دينًا لا يتضمَّن فكرة الخلاص، الَّتي تعني حُكم الرَّجل العادل، الَّذي يتحقَّق على يديه السَّلام الدَّائم، والرُّخاء العام والمعرفة الشَّاملة. وهو الرَّجل الَّذي يُشخّصه الإسلام في الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، ويعتبره حتميَّة تاريخيَّة لا بدَّ منها.

إنَّ تصوُّر (كانط)، الَّذي يركّز على الدَّساتير المدنيَّة، والقوانين الدوليَّة، يريد سلامًا دائمًا دون أسس متينة قادرة على تحقيقه، ويتجاهل المُحرّكات الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة؛ مثل الفقر والتَّفاوت الطَّبقي والصّراع على الموارد، الَّتي تخلق الحروب. ولذلك ربط مفكرون مثل (ماركس -Marx)،

الحروبَ بالرَّأسماليَّة والصّراع الطَّبقيّ، وجعل الاقتصاد محرّكًا للسّياسة، بل إنَّ الحروب قد تندلع لغايات توسُّعيَّة من أجل النُّفوذ السّياسيّ ونشر الأفكار والمعتقدات.

تبدو رؤية)كانط(مُنفصلة عن الطَّبيعة الإنسانيَّة، الَّتي لا تتحرَّك دائمًا على أُسس عقلانيَّة، بل كثيرًا ما يحكم سلوكها: الخوف والطَّمع والتَّعصُّب والأنانيَّة. كما أنَّها تُعاني من التَّبايُن؛ حيث إنها تُغمض العين عن السّياقات الماديَّة، الَّتي تحكم السُّلوك البشريَّ.

من الممكن أن تكون فَرضيَّة (كانط) حول الحرب باعتبارها مرحلة مؤقتة تحرك الإنسانيَّة نحو السَّلام، من خلال التَّقدُّم في خط التَّاريخ، صحيحة. بل إنَّ هذا هو الصواب، فحالة البؤس الَّتي يعيشها العالم، ناتجة عن حكم الأشرار والتَّافهين، وعندما يحكم الأخيار والعلماء، فإنَّ ذلك سيكون دافعًا نحو تحقيق السَّلام الشَّامل بعد تأسيس الدَّولة العالميَّة الواحدة، الَّتي تُعتبر أملاً إنسانيًّا سبق أن حدث في التَّاريخ أكثر من مرَّة. ومؤشّر حركة التَّاريخ يؤشر على استعادة توحيد العالم في ظلّ دين واحد، ودولة واحدة، وقيادة واحدة.

وهذا هو موقف الإسلام في الحقيقة. فقد روي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، قوله: "إذا قام القائم حكم بالعدل وارتفع في أيامه الجور وأمنت به السبل وأخرجت الأرض بركاتها ورد كل حق إلى أهله ولم يبق أهل دين حتى يظهروا الإسلام ويعترفوا بالإيمان، أما سمعت الله -سبحانه- يقول:

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]"[1].

لم ينتبه (كانط) إلى أنَّ الدَّولة القويَّة هي الَّتي تفرض إرادتها. واليوم عندما تشعر الولايات المتَّحدة أنَّها أقوى دولة في العالم، فإنَّها تتدخَّل في المكان الَّذي تريد دون أن يمنعها أحد. فلو فرضنا ظهور دولة بقوة ساحقة، ولا يُمكن لأيَّة دولة مقاومتها والوقوف أمامها، فإنَّ تلك الدَّولة بإمكانها توحيد العالم ضمن إطارها طوعًا أو كرها، أي من خلال التَّفاهُم أو من خلال القوَّة.

يركّز (كانط) على الحروب بين الدُّول، محاولاً تقديم حلول لمنعها أو إيقافها عندما تندلع، ولم يُشر إلى الحروب الأهليَّة، الَّتي قد تؤدّي إلى انقسام الدَّولة الواحدة وتشظّيها إلى دُول متعدّدة، كما حدث في البلقان، عندما أدَّت الحروب الأهليَّة إلى تقسيم يوغسلافيا وتشيكوسلوفاكيا إلى دول متعدّدة، وكذلك الحرب الأهليَّة في السُّودان، الَّتي أدَّت إلى انفصال الجنوب في دولة مُستقلَّة. والحروب الأهليَّة تندلع في حالات كثيرة بسبب الظُّلم السّياسيّ، وسوء توزيع الثَّروة من خلال احتكار جهة واحدة لها، وفي بعض الحالات بسبب تدخُّل قُوى خارجيَّة تريد إضعاف الدَّولة المُستهدَفَة.

---

١ - محمد بن محمد (الشيخ المفيد): الإشاد، ص٣٤٤.

حرَّك (كانط) مسألة الحرب والسَّلام، وأدخلها ضمن دائرة التَّفكير الفلسفيّ، وجعل لها إطارًا نظريًّا وخُلُقيًّا. غير أنَّ رؤيته جاءت مثاليَّة وغير متوازنة. ولم يقدم فواعل حقيقيّة، توقف اندلاع الحروب، وتسهّل مرور الإنسانيَّة نحو السَّلام الدَّائم. وبسبب ذلك جاءت رؤيته محدودة.

لا تزال الحرب تمُثّل تحدّيًا حقيقيًّا، يُهدّد حياة أعداد هائلة من البشر؛ إذ لم تعُد الحروب تُخاض بالطُّرق التَّقليديَّة القديمة نفسها، بل إنَّ أجيالاً من الحروب ظهرت خلال فترة قياسيَّة بسبب التَّقدُّم التّكنولوجيّ الكبير الحاصل في العالم. وباتت الحروب النَّاعمة جزءًا رئيسًا إلى جانب الحروب الصُّلبة.

لم يتحدَّث (كانط) عن «الحرب النَّاعمة» بشكل صريح، لكنَّه تناول التَّفاعُل بين الثَّقافات في مؤلَّفه «نحو السَّلام الدَّائم». ورأى أنَّ الثَّقافة الأوروبيَّة، بما تحمله من قِيَم العقلانيَّة والحريَّة المزعومة، يُمكن أن تكون نَموذجًا عالميًّا، لكنَّه لم يدعُ إلى فرضها بالقوَّة، رغم موقفه السلبيّ والتحقيريّ للشُّعوب الأخرى. وبدلاً من ذلك، اقترح نظامًا جمهوريًّا عالميًّا يمكن أن يكون إطارًا لما أصبح يُعرف اليوم بالحرب النَّاعمة. وهذا يعني أنَّ السَّلام الَّذي دعا إليه (كانط) ليس شيئًا آخر غير استخدام الغرب المُهيمن -منذ ذلك الحين- لقوَّته النَّاعمة ضدَّ الشَّعوب الأخرى، الَّتي جعلها في درجات أدنى من الشُّعوب الأوروبيَّة.

ثَالثًا: أَجيالُ الحُروبِ

لم تتوقَّف الحروب بين البشر منذ بداية التَّاريخ. وكانت الحروب تُشنُّ بصورة تقليديَّة من أجل الثَّروات والموارد، أو من أجل النُّفوذ والسُّلطة، أو من أجل الدّين والمعتقدات والثَّقافة. لكنَّ الحروب الَّتي استمرت بطريقة المواجهة بين جيشين نظاميَّين، وباستخدام أسلحة تقليديَّة كالسُّيوف والرّماح والسّهام، ستتطوَّر مع اختراع البارود والأسلحة النَّاريَّة. وذلك التَّطوُّر لن يقف عند هذا الحد، بل ستظهر الحروب النَّاعمة، الَّتي تستخدم أسلحة أُخرى مثل: الاقتصاد والثَّقافة والفنون والإعلام، وصولاً إلى التَّحكُّم في المناخ وافتعال الزلازل والأعاصير. وقد وضع الضَّابط والمُنظّر العسكريُّ الأمريكيُّ)وليم إس ليند(نظريَّة أجيال الحروب الأربعة، وقال إنَّ أجيال الحروب تتغير مع إحداث «نقلة نوعيَّة مؤكَّدة»[1].

مرَّت الحروب بأجيال متعدّدة عبر تاريخها. والجيل الأوَّل من الحروب -بحسب (ليند)- هو الَّذي امتدَّ من عام ١٦٤٨ وحتى ١٨٦٠؛ حيثُ كانت الحروب تُخاض على أرض واحدة بين جيشين نظاميَّين يمُثّلان دولتين في مواجهة بعضهما بعضًا، ويستخدمان أسلوب الخطوط والصُّفوف،

1 - William S. Lind, Understanding Fourth Generation of War, 26th July 2016, 5GenFifth Generation Warfare, Terrorism, Violent Transnational Social Movements. See: http://www.da-ic.org/5gen/201626/07//william-s-lind-understanding-fourth-generation-war.

ويكون العسكريُّون مميَّزون عن المدنيّين بملابسهم العسكريَّة، وتحيَّتهم الخاصَّة، ورتبهم العسكريَّة، وفي مكان بعيدٍ عن سكَّان المدن أو القُرى.

وتتَّسم الجيوش في هذا الجيل بالانضباط الصَّارم، والطَّاعة العمياء للأوامر العسكريَّة والسّياسيَّة. والمثال الَّذي يقدّمه (ليند) هو الحروب الأهليَّة الأمريكيَّة، والحروب الإنجليزيَّة، وحملات (نابليون) العسكريَّة وحرب المكسيك. ومع منتصف القرن التَّاسع عشر، بدأت طبيعة الحروب تتغيَّر بسبب تطوُّر الأسلحة، وزيادة حجم النّيران والتَّدمير، وما تخلّفه الحرب من فوضى، فتُخْلِيَ عن الخطط القديمة، ولم يعُدْ ممكنًا استخدام أسلوب الخطوط والصُّفوف.

وأثناء الحرب العالميَّة الثَّانية، استخدم الجيش الفرنسي القوَّة الشَّاملة للنّيران المدفعيَّة، ومن ضمنها مدفعيَّة الدَّبابات، فبدأت بذلك حروب الجيل الثَّاني، وهذه العقيدة القتاليَّة تتلخَّص في مقولة «نيران المدفعيَّة تقهر العدوَّ، والمُشاة تحتلُّ الأرض»؛ حيث تُرسم الخُطط الحربيَّة على أساس استخدام الكثافة النَّاريَّة من خلال التَّحكُّم المركزي فيها بعناية، وتُصدر الأوامر المفصَّلة للمُشاة والدَّبابات والمدفعيَّة، كما في حالة قائد الجُوقة الموسيقيَّة وفرقته.

وهذا الجيل الثَّاني، أنقذ بخُططه الجيوش من الخسائر الكبيرة، وركَّز على عوامل الانضباط الدَّاخليّ، والطاعة فيه مقدمة على «المبادأة» لتجنُّب خطر التَّعرُّض للكثافة النَّاريَّة المُتزامنة. فالجيوش تكون منظَّمة بشكل

هرميّ، والأوامر تنزل من الأعلى إلى الأدنى، ولا مجال للتَّصرُّف التّلقائيّ. وقد بدأ هذا الجيل في الاعتماد على القوَّة الجويَّة لاستهداف المدفعيَّة وتدميرها.

وخلال الحرب العالميَّة الثَّانية، ظهرت عيوب كثيرة في الخُطط العسكريَّة، وكان لا بدَّ من معالجتها، وهو ما فعله الجيش الألمانيُّ، الَّذي اخترع «حرب المُناورة»، فبدأت الحرب تستند على السُّرعة والمفاجأة والتَّشتيت الذّهني لقوات العدوّ. ومن النَّاحية التَّنفيذيَّة، تهاجم القوَّات العسكريَّة العدوَّ في العمق، لإحداث انهيارات في بِنيته الدَّاخليَّة، وقواه الاحتياطيَّة، بينما تعمل القُوَّات المُدافِعة على حصار العدوّ ثمَّ تجزئته. وفي حروب هذا الجيل الثَّاني، لا وجود للمنافسة التَّقليديَّة على الخطوط المنتظمة؛ حيث لم تعد الحرب خطيَّة كما في حروب الجيل الأوَّل.

وعلى عكس حروب الجيلين الأوَّل والثَّاني، تُقدَّم، في حروب الجيل الثالث، المبادرة على الطاعة؛ بحيثُ يُمكن التَّسامح مع الأخطاء، ما دامت نتيجة المبادرة إيجابيَّة. والانضباط فيها ذاتيٌّ، وليس مُسقطًا من فوق، والمثال على هذه الحروب: حرب أكتوبر وحرب الخليج.

وفي سنة ١٩٨٩، ظهر مصطلح حروب الجيل الرَّابع لأوَّل مرَّة، وأُطلق على حرب العصابات؛ حيثُ لم تعد المواجهة تحدث بين الجيوش النّظاميَّة، بل على العصابات المدرَّبة، الَّتي تشنُّ حملات لاستنزاف العدوّ، بعيدًا عن استهداف المدنيّين أو اللجوء إلى الجنود النّظاميّين. ولم تعُد

هناك ساحة محدَّدة للمعركة، بل صارت أرض العدوّ كلّها ساحة لحرب العصابات. صار العنف غير نظاميّ، ولا تمارسه الجيوش بذاتها، كما كان الحال في حروب الأجيال السَّابقة. وأُطلِق على هذه الحرب «الحرب غير المتماثلة»؛ حيث لا يوجد تكافؤ في التَّسليح، ولا مركزيَّة الإجراءات.

وقد سُمّيت حروب هذا الجيل بحروب الأدمغة؛ لأنَّها لم تكتفِ بالاعتماد على العقيدة الدينيَّة أو الأيديولوجيَّة، الَّتي تُعطي للمُقاتل زخمًا كبيراً للاندفاع في المعارك والثَّبات فيها، عند شنّ حرب العصابات، بل اعتمدت على الذَّكاء، واستخدام الإعلام للسيَّطرة على الرَّأي العام وإخضاعه، وتفتح المجال للمبادرة والابتكار والإبداع. والمثال على ذلك: مقاومة حزب الله في لبنان ضد «إسرائيل»، ومقاومة المنظَّمات الفلسطينيَّة ضدَّ المُحتل، وحرب سلفادور، وحرب فيتنام.

وتتميَّز حرب الجيل الرَّابع بكونها عَقَديَّة، يتداخل فيها العسكري بالمدني، وتتجاوز حدود الأوطان المرسومة، وتستخدم فيها المبادئ الدّينيَّة. وفي المقابل، تهاجم معتقدات العدو لتعريتها وإسقاط قدسيتها في وعي أصحابها. وفي حروب هذا الجيل، يُستخدَم العنف الماديُّ كما هو الحال في الإرهاب، وهو ما فعلته الولايات المتَّحدة حين صنعت تنظيم القاعدة لمحاربة الاتحاد السوفياتي، وتنظيم الدَّولة لإسلامية، وتنظيم النصرة لافتعال الحروب الطائفيَّة، وتفكيك الدُّول والمجتمعات. كما قد يستخدم العنف الذّهني في حروب الجيل الرَّابع من خلال المقاومة

السلميَّة، كما فعل (مارتن لوثر كينغ -Martin Luther King) في أمريكا، و(غاندي -Gandhi) في الهند، و(مانديلا -Mandel) في جنوب إفريقيا. وهي أيضًا حروب معقَّدة طويلة المدى، وتستخدم آليَّات الاستنزاف والتَّضليل، وإسقاط ثقة مجتمع العدو في جيشه واستخباراته، من خلال عمليَّات صغيرة، ولكن مؤثّرة. وتعتمد حروب هذا الجيل، كذلك، على العوامل النَّفسيَّة من خلال التجييش الإعلاميّ، وشنّ الحروب القانونيَّة، وإرباك العدوّ، والتَّشكيك في قدرته على تحقيق النَّصر. ويُستخدَم المحلّلون السّياسيُّون والمثقفون في هذه الحرب لكشف نقاط ضعف العدوّ، وانتهاكاته بحق المدنيّين، وخرقه للقوانين الدوليَّة.

ومن النَّاحية التَّنظيميَّة، تعتمد حروب الجيل الرَّابع على العصابات والمليشيَّات، الَّتي لا تخضع لتسلسلٍ هرميّ، ما يُعطي مرونة لتحرُّك خلاياها بعيدًا عن الأضواء. وهي تتميَّز بالمثابرة والصَّبر من أجل تحقيق أهدافها، الَّتي تشمل الجبهات المختلفة: الاقتصاديَّة، والسّياسيَّة، والمدنيَّة، والعسكريَّة، والإعلاميَّة.

تهدف حروب الجيل الرابع إلى هزيمة العدوّ سياسيًّا، من خلال إسقاط نظام الحكم القائم، أو تغيير مواقفه السياسيَّة. وقد تكون هذه الحرب من أجل البقاء فحسب، وإثبات القدرة على الوجود. وقد تكون مجرَّد رسالة للعدوّ، بأنَّ أهدافَهم قابلةٌ للتَّحقيق، وأنَّ أيَّ استهدافٍ لها من العدو سيكون مكلّفًا.

لم تخترع أمريكا حروبَ الجيل الرَّابع لإسقاط أنظمةٍ بعينها، بل كانت

تحاول مُواجهة حروب من هذا الجيل، كما قال (وليم ليند)[1]. فقد وَصمت أمريكا المنظمات المقاومة لنفوذها، أو المحاربة للاحتلال، بـ«الإرهاب»، وهذا شأن المقاوَمة الفلسطينيَّة واللبنانيَّة مثلاً. كما واجهت المقاوَمة السّلميَّة، الَّتي قادها (لوثر كينغ) داخل أمريكا نفسها، ووصمتها بـ«العُنف الفكريّ». وهو ما فعله الغرب عامَّة مع حركة (نيلسون مانديلا)، ومنظمة «ذئاب الليل» الرُّوسيَّة في أوكرانيا وجورجيا وبولندا.

تحتاج مواجهة القوى المهيمنة إلى بناء القوَّة الذَّاتيَّة في الدَّاخل. ولا يمكن ذلك دون إقامة الدَّولة العادلة والحكومة الرَّشيدة، اللتان تخضعان للقانون والمساءلة والمراقبة، وتعتمدان الشفافيَة والتَّواصل مع النَّاس، وتعتمدان الكفاءة، وتحددان لنفسيهما أهدافًا واضحةً ضمن خطط استراتيجيَّةٍ طويلة المدى.

وعلى هذا النَّحو، فإنَّ الحرب النَّاعمة تنتمي إلى الجيل الرَّابع من الحروب، وفقًا للاستراتيجيّين الغربيّين. فهو يُمثّل تطوُّرًا في أساليب الصّراع؛ حيثُ يتمُّ استهداف العدوّ بوسائل غير عسكريَّة، مثل: الحرب الإعلاميَّة، والحرب النفسيَّة، والتَّأثير الثَّقافيّ، والحروب الاقتصاديَّة، والحروب المعلوماتيَّة، بهدف تفكيك المجتمع من الدَّاخل وإضعاف شرعيَّة الدَّولة.

في حروب الجيل الرابع، تُصبح القوَّة النَّاعمة مثل: الإعلام، والثَّقافة،

1 - Ibid.

والقِيَم، والتّكنولوجيا، والاقتصاد، وسائل بديلة عن المواجهة العسكريَّة، وتستخدم في التَّأثير على الرَّأي العام، وتغيير الهُويَّة الثَّقافيَّة والمعتقدات لشعوب مُستهدفَة، دون اللجوء للقوَّة العسكريَّة. والحرب النَّاعمة، تستهدف تفكيك الأنظمة السّياسيَّة والمجتمعات من خلال التَّلاعُب بالمعلومات، ونشر الإشاعات، وإضعاف ثقة النَّاس بحكوماتهم.

وقد أضاف باحثون أجيالاً أُخرى من الحروب، حتَّى صارت تسعة أجيال. والجيل الخامس من الحروب هو نتاج تكنولوجيا «النَّانو». وهو ما يعرف تقليديًّا باسم «العمليات الزَّائفة». لكنَّ العقيد (وليم ليند) صاحب نظريَّة أجيال الحروب الأربعة، قال إنَّ أحد أسباب ارتباك من يحاولون إيجاد جيل خامس للحروب، قد يكون سوء فَهم لـمصطلح «الجيل» ارتباطًا بالحروب؛ حيث يُعرف مصطلح «جيل» في هذه الحالة، بأنه نقلة نوعيَّة تأكَّدَت وحُسم الجدل فيها.

لكن ما هو الهدف من طرح نظريَّاتٍ جديدة بشأن الحروب؟

أجاب)مارتن فان كريفيلد (Martin Levi van Creveld-، في كتابه «التّكنولوجيا والحرب» عن هذا السُّؤال، فقال: «إنَّه من الأفكار الخاطئة، الَّتي قد تتحدَّد بها نتائج الحرب، فكرة التَّفوُّق التّكنولوجيّ في الأسلحة والمعدَّات، والَّتي نادرًا ما تُعتبر العامل الحاسم لتوقُّع نتائج الحروب، كما حدث مع الإدارة الأمريكيَّة عندما أعلنت أنَّها قد حسمت نتائج الحروب من خلال ما أسموه 'الثَّورة في الشؤون العسكريَّة'، في حين أنَّ الهدفَ

من الدّعاية (Propaganda)، الَّتي صاحبت هذا المصطلح، كان مجرد تحقيق أكبر مبيعات ممكنة للسّلاح الأمريكيّ وقتذاك، الَّتي أثبتت فشلاً أمام "تنظيم داعش" وأخواتها اليوم. وهو ما يكرَّر الآن مع محاولة تفعيل دعاية جديدة، مع ما أُطلق عليه "الجيل الخامس للحروب"[١].

لا يرى المشتغلون بالاستراتيجيَّات العسكريَّة وجاهة لمصطلح حروب الجيل الخامس، فضلاً عن الجيل السَّادس والسَّابع، فهي عندهم تصوُّرات وهميَّة لا تقوم على أساس علميّ؛ حيث لا يوجد ما يميّزها، ولا ما يميّز منفّذيها، ولا توجد أهداف استراتيجيَّة خاصة بها. ولذلك لا وجود لدراسات أكاديميَّة عسكريَّة موثَّقة ومنهجيَّة عن هذه الحروب.

غير أنَّ آخرين، يرون أنَّ حروب الجيل الخامس حقيقيَّة ولها مميّزاتها. فهي الحروب الَّتي تعتمد الهندسة الإلكترونيَّة والتَّضليل. وقد وصف (دانيال أبوت Daniel Abbott-) حرب الجيل الخامس، بأنَّها حرب "معلومات وإدراك"[٢]. ورغم ذلك لا يوجد تعريف مُتَّفق عليه على نطاق واسع لحرب الجيل الخامس[٣].

---

1 - Martin van Creveld: Technology and War: From 2000 B.C. to the Present, p4563-.

2 - Daniel Abbott: The Handbook of Fifth-Generation Warfare, p20.

3 - George Michael: Lone Wolf Terror and the Rise of Leaderless Resistance, p156.

وكان (روبرت ستيل -Robert Steele) أوَّل من استخدم مصطلح "حرب الجيل الخامس" عام ٢٠٠٣. لكنَّ (ليند) انتقده في العام التَّالي، بحجة أنَّ حروب الجيل الرَّابع لم تتحقَّق بالكامل[١]. وفي عام ٢٠٠٨ استخدم (تيري تيريف -Terriff Terry) المصطلح، لكنَّه قال إنَّه ليس متأكّدًا من أنَّ رسائل بروتين الريسين (Ricin) -وهما ظرفان يحتويان على قارورة من مسحوق الرّيسين، أرسلا إلى البيت الأبيض في ذلك الحين- كانت هجومًا من الجيل الخامس[٢].

1 - Daniel Abbott: The Handbook of Fifth-Generation Warfare, p209.

2 - Terriff Terry: Global Insurgency and the Future of Armed Conflict, p42.

الفَصلُ الثَّانِي:

تَنوِيعَاتُ القُوَّةِ الاستِرَاتِيجِيَّةِ النَّاعِمَةِ

استخدم (جوزيف ناي -Joseph Nye) مصطلح "القوة الناعمة" بدلاً من "الحرب الناعمة"، الَّتي تُصنَّف من حروب الجيل الرَّابع. وقد تجنَّب ذلك حتَّى لا يبدو أنَّه يكشف عن استراتيجيَّة أمريكيَّة لمهاجمة الدُّول الأخرى من خلال قوتها الناعمة. فالحرب هي استخدام القوَّة ضدَّ العدوّ، وقد تكون تلك القوَّة ناعمة أو صُّلبة. وإذا كانت القوَّة الصُّلبة تتضمَّن القدرة على الإكراه، من خلال التَّهديدات والحوافز على طريقة "العصا والجزرة"، فإنَّ القوَّة النَّاعمة هي "القدرة على تحقيق الأهداف من خلال الجذب بدلاً من الإكراه"[1].

وقد طرح (ديفيد غومبرت - David Gompert)، و(هانس بيننديك - hance benedict) مفهومًا ثالثًا هو "القدرة على الإرغام"، في دراسةٍ لهما بهذا العنوان. واعتبرا أنَّ هناك نوعًا ثالثًا من القوَّة، يمُكن استخدامها في الحرب، وتختلف عن القوَّة العسكريَّة الصُّلبة، والقوَّة النَّاعمة، وهو يعتمد

١ - جوزيف ناي: القوة الناعمة، ص١٠.

على أدوات تحمل خاصيَّة الإكراه والإرغام؛ مثل: الحصار الاقتصادي، والعزل المصرفي، والمقاطعة الدبلوماسيَّة، والهجمات المعلوماتيَّة، ودعم المعارضة السلميَّة. وهذه الأدوات سبق أن أدرجها (ناي) ضمن القوَّة النَّاعمة. وهذا يعني أنَّ ما طرحه (غومبرت) و(بيننديك) يمكن أن يكون تدقيقًا لمفهوم القوَّة النَّاعمة وأدواتها، باعتبارها قوة تستبعد الإكراه والإرغام، وتعتمد الإغراء والجذب.

● المبَحَثُ الأَوَّلُ: تمَوضُع القوَّة النَّاعمة

لا تنحصر قوَّة الدَّولة في الجانب العسكري الصَّلب، بل تشمل أيضًا جوانب أُخرى: اقتصاديَّة وسياسيَّة وثقافيَّة. والقوَّة هنا، لا تتعلَّق بالضَّرورة بالمضمون، بل ربمَّا تتعلَّق بشكل القوَّة وفاعليَّة الاستخدام. وهذا ما يسميه (جوزيف ناي) بالقوَّة النَّاعمة. وقد باتت هذه القوَّة حاسمة في تحقيق الهيمنة والنفوذ والاستلحاق الثَّقافيّ والسّياسيّ على نحوٍ واسعٍ.

أوَّلًا: مَفهُوم القوَّة الذَّكيَّة

يشير مفهوم القوة الذكيَّة، إلى توازن القوَّة الصُّلبة والنَّاعمة. فالقوَّة النَّاعمة مهمَّة بقدر القوَّة الصُّلبة، في السياسة الدَّوليَّة. والواقع أنَّ القوَّة النَّاعمة تمُكّن من تغيير سلوك الآخرين، دون منافسة أو صراع، باستخدام الإقناع والجذب. علاوة على ذلك، فإنَّ استخدام القوَّة الصُّلبة، في العصر

الحديث، سيكون أكثر تكلفة ماليًّا وسياسيًّا، في حين أنَّه من الممكن القول إنَّ القوَّة النَّاعمة «مجانيَّة»، بمعنى أنَّها لا تتطلَّب موارد كبيرة، ولها عواقب محدودة في حالة الفشل. وبما أنَّ القوَّة النَّاعمة مسألةُ جاذبيَّةٍ، فإنَّ سلوكيَّات الغطرسة قد تكون غير مُنتجة، وتنطوي على النَّفور بدلاً من الجاذبيَّة.

ويعترف (ناي)، بأنَّ القوَّة النَّاعمة لا تهدف دائمًا إلى تحقيق أغراض جيّدة، فالدعاية، مثلاً، هي صورة من صور القوَّة النَّاعمة، لكن «ليس من الأفضل بالضرورة أن تُلوي العقول، من أن تُلوي الأذرع»[1]. فهو لا يستطيع القول إنَّ القوَّة النَّاعمة الأمريكيَّة تخاطب الغرائز، وتخرّب الأخلاق، ولا تعترف بأيّ قِيَم.

وبهذا المعنى، يتحرَّك مفهوم القوَّة النَّاعمة في خطّ التَّقاليد الليبراليَّة. وفي مقابل القوَّة الصُّلبة، لا تُركّز القوَّة النَّاعمة على احتمال الحرب الدَّائمة، بل على إمكانيَّة التَّعاون. فهي لا تعتمد على القوَّة العسكريَّة، بل على قوَّة الأفكار. إنَّ القوَّة النَّاعمة تعتمد الحلول الثلاثة، الَّتي يقترحها الليبراليُّون لحلّ مشكلة الحرب. الأوَّل: هو أن الديمقراطيَّات لن تخوض حربًا ضد ديمقراطيَّات أُخرى. ففي الديمقراطيَّة، يكون للشَّعب رأي في القرارات الكُبرى من خلال ممثّليه، ويمُكنه فرض خيارات السَّلام. وهذا

١ - جوزيف ناي: القوة الناعمة، ص٨١.

يعني أنَّ الدّيمقراطيَّات أكثر ميلاً إلى استخدام القوَّة النَّاعمة بدلاً من القوَّة الصُّلبة.

وقد يُناقش ذلك بالقول إنَّ الدّيمقراطيَّة، الَّتي يُعلنها الغرب تخفي نقيضها؛ لأنَّ رأس المال هو الَّذي يحكم حقيقة، وهو الذي يُنجح من يشاء في لُعبة الانتخابات. فمثلاً، لا يوجد رئيس أو سيناتور أو نائب أمريكيٌّ يصل إلى الكونغرس أو مجلس النُّواب دون دعم سياسيّ أو ماديّ من الإيباك (AIPAC). فهي بهذا المعنى استبداد ناعم؛ لأنَّ النُّخبة الرَّأسماليَّة هي الَّتي تحكم وتُقرّر. والحروب الصُّلبة الَّتي تخوضها تلك الأنظمة، لا سيَّما الولايات المتَّحدة، لم تتوقَّف. ممَّا يعني أنَّها لا تكتفي بالحرب النَّاعمة.

تسمح الدّيمقراطيَّة، كما يقدّمها الليبراليُّون، بوجود المعارضة والنَّقد الذَّاتي، وهذا يعزّز من مصداقيَّة الرَّسائل الَّتي توجّهها الدَّولة القويَّة. فالنَّقد نفسه جزءٌ من القوَّة النَّاعمة. وبكلمة أُخرى، تجعل الدَّولة الرَّأسماليَّة، كما هي الولايات المتَّحدة، من الديمقراطيَّة جزءًا من قوَّتها النَّاعمة، الَّتي تغري بتقبُّل بقيَّة الرَّسائل، الَّتي تُروّج لها في الفِكر والثَّقافة والأخلاق والقِيَم.

لا شكَّ أنَّ النَّقد وحريَّة الكلمة عنوان قوَّة بالنّسبة لأيّ دولة. فالدَّولة القويَّة هي الدَّولة الَّتي ترفض الاستبداد، وتُعطي للنَّاس حريَّتهم، وتحكم على أساس القانون. لكنَّ السُّؤال هو عن حدود النَّقد المسموح به في الديمقراطيَّات الغربيَّة. إنَّنا نجد مثلاً أنَّ نقد "إسرائيل" والصهيونيَّة في الغرب، وأمريكا بشكل خاص، خطٌّ أحمر. ومن يتجرَّأ ويمارسه يُقصى، وربمَّا يُغتال.

وفي المقابل يُسمح بالسُّخرية من الأنبياء والأديان، وحرق القرآن.

وعندما نعرف أنَّ من يحرِّم نقده هو من يحكم حقيقة، نعرف أنَّ الصُّهيونيَّة، ورأس المال التَّابع لها بمعظمه، أو ربمَّا كله، هما من يحكما. ويُصبح نقد الرَّئيس والحكومة في الغرب، يُشبه نقد مسؤول صغير في منطقة صغيرة، في دولة يحكمها الاستبداد الصُّلب.

أمَّا الحلُّ الثَّاني لمشكلة الحرب فهو التَّرابط الاقتصاديُّ. لكنَّ هذا التَّرابط يَفرض على الدُّول الضَّعيفة التَّعاون مع الدُّول القوَّية، من خلال ممارسة الضُّغوط عليها؛ بحيث تُصبح مضطرَّة للتَّعامل معها، وهذا في الحقيقة يتضمَّن إكراهًا وليس جاذبيَّة أو إغراء. وبذلك يكون الحلُّ الاقتصاديُّ أقرب إلى القوَّة الصُّلبة من القوَّة النَّاعمة.

لكن (جوزيف ناي) يرى مع ذلك، أنَّ "الموارد الاقتصاديَّة يمُكن أن تُنتج أيضًا القوَّة النَّاعمة" فيُمكن على هذا النَّحو، استخدام الاقتصاد في الاتّجاهين: الجذب والإكراه[1]. وعندما يُستخدم في اتّجاه الإكراه، فإنَّه يخرج عن كونه قوةً ناعمةً، ويُصبح «قدرة على الإرغام»، كما يقول (ديفيد غومبرت) و(هانس بيننديك). إنَّ اقتصاد التّجارة الحرَّة يُنتج القوَّة النَّاعمة؛ لأنَّه يجتذب الآخرين إلى نمَّوذجه. وقد يخلق الاقتصاد الليبراليُّ النَّاجح رغبة في تبني هذا النَّموذج في الدُّول الأُخرى.

1 - Joseph S. Nye Jr., Soft Power: The Means to Success in World Politics, p85.

تُشكّل المؤسَّسات الدَّوليَّة الحلَّ الثَّالث الَّذي يطرحه الليبراليُّون لمشكلة الحرب. فمن خلال تقوية التَّعاون على أساس القواعد والمعايير المشتركة، يُمكن تعميق العلاقات السّلميَّة. وهذا افتراض أساس في الليبراليَّة الجديدة، الَّتي تنظر إلى المؤسَّسات باعتبارها وسيلة لتخفيف آثار الفوضى. ويتَّفق (ناي) مع هذه الحجَّة، دون أن ينسى أنَّ التَّعاون أمر صعب التَّحقيق. فهو يؤكد، مع (روبرت كوهان Robert Cohen-)، أنَّ مجرَّد إنشاء المؤسَّسات يُمكّنها من الاستمرار، فبمجرد إنشاء مجموعة من الشَّبكات والمعايير والمؤسَّسات، سيكون من الصعب، القضاء عليها أو إعادة ترتيبها بشكلٍ جذريّ. علاوة على ذلك، يؤكّد (ناي) أنَّ "المؤسَّسات قادرة على تعزيز القوَّة النَّاعمة لأيّ دولة"[١].

لا شكَّ أنَّ هذه المؤسَّسات يُمكنها أن تخدم قِيَم الدَّولة وأفكارها وسياساتها وتُرسّخها، سواء مع الأعضاء الآخرين أو البلدان خارج المؤسَّسة. «فإذا كان بوسع أي دولة أن تشكّل قواعد دوليَّة تتَّفق مع مصالحها وقِيَمها، فإنَّ أفعالها سوف تبدو أكثر مشروعيَّة في نظر الآخرين»[٢]. فمثلاً، تستخدم الولايات المتَّحدة مؤسسات مثل: صندوق النَّقد الدَّولي، ومنظمة التّجارة العالميَّة للتَّرويج لقِيَمها الليبراليَّة والدّيمقراطيَّة. وعلى هذا

١ جوزيف ناي: القوة الناعمة، ص١٠.

٢ جوزيف ناي: القوة الناعمة، ص١٠.

فإنَّ القوَّة النَّاعمة، كما قدَّمها (جوزيف ناي)، تتبنَّى قدرًا كبيرًا من النَّظريَّة الليبراليَّة، خاصة المؤسَّسيَّة النيوليبراليَّة.

يستخدم (جوزيف ناي) هذه النَّظريَّة لدراسة الحالة الخاصَّة بالولايات المتَّحدة. وهو يهدف إلى إثبات أنَّ البلاد ليست في حالة انحدار، وأنَّ الانعزاليَّة لابدَّ أن تتجنَّبها. ويقول إنَّ الولايات المتَّحدة لا بدَّ أن تتعاون في عالم مُعولَم ومترابط، وهي في حاجة أيضًا إلى تعاون البلدان الأخرى. ولأنَّ هناك عددًا متزايدًا من القضايا العالمية، فإنَّ الأمر يتطلَّب نهجًا متعدّد الأطراف في العلاقات الدَّوليَّة. وعلى هذا النَّحو، فإنَّ القوَّة النَّاعمة هي الَّتي ستكون مفيدة في هذا الموقف، وليس القوة الصُّلبة.

إنَّ قضايا مثل: الاحتباس الحراريّ العالميّ، والفضاء الخارجيّ، والفضاء الإلكترونيّ، يُمكن أن تحلَّ بالقوَّة النَّاعمة، في نظر (ناي)، في حين أنَّ القوَّة العسكريَّة سوف تكون غير فعَّالة أو غير كافية. ويبرر (ناي) استخدام التعدُّديَّة في السّياسة الخارجيَّة الأمريكيَّة؛ لأنَّها تمُكّن البلدان الأخرى من عدم الشُّعور بالتَّهديد من تفوُّقها، وهو يقول: «كانت التَّعدديَّة المتمثّلة في التَّفوُّق الأمريكيّ مفتاحًا لطول عمرها؛ لأنَّها قلَّلت من الحوافز لبناء تحالُفات مضادَّة»[1].

1 - Joseph S. Nye Jr., Soft Power: The Means to Success in World Politics, New York: PublicAffairs, 2004, p65.

يتَّفق (ناي) مع الليبراليَّة الجديدة، في أنَّ المكاسب المُطلقة أكثر أهميَّة، بالنّسبة للدُّول، من المكاسب النسبيَّة. وحتَّى في ظلّ القوَّة النَّاعمة، يمُكن تنفيذ تفاعل مُحصّلته إيجابيَّة. «لا ينبغي للقوَّة النَّاعمة أن تكون لُعبة محصّلتها صفر؛ حيث يكون مكسب دولة ما بالضَّرورة خسارة دولة أخرى»[1]. فهو يريد للقوَّة النَّاعمة أن تكون مفيدةً لكلّ الأطراف. وهذا يتناقض مع الافتراض الواقعيّ، الَّذي يقول إنَّ الدُّول تسعى إلى الأمن فقط. بالنّسبة لـ (ناي) وغيره من المفكرّين الليبراليّين، تسعى الدُّول إلى الرخاء أيضًا.

وهكذا يجمع (ناي) بين ثلاثة عناصر، في لُعبة مثلَّثة الأضلاع، أطرافها: القوَّة العسكريَّة والقوَّة الاقتصاديَّة والقوَّة النَّاعمة. في قمَّة المثلَّث هناك القوَّة العسكريَّة أحاديَّة القُطب، مع هيمنة الولايات المتَّحدة. في القاعدة هناك القوَّة الاقتصاديَّة، متعدّدة الأقطاب، رغم احتلال الولايات المتَّحدة المركز الأول. وهي ليست القوَّة الوحيدة والمهيمنة. وفي الجانب الآخر تكون العَلاقات العابرة للحدود الوطنيَّة قوة متفرقة؛ حيث لا أحد يقود. وهذا يعني أنَّ الولايات المتَّحدة يجب أن تهتمَّ -حسب (ناي)- بالجوانب التَّحتيَّة.

---

١ - جوزيف ناي: القوة الناعمة، ص٩٠.

ثَانيًا: حُدودُ القوَّةِ النَّاعمَة

لا شكَّ في أهميَّة نظريَّة القوَّة النَّاعمة، غير أنَّ تلك الأهميَّة لها حدود؛ حيث يميل (جوزيف ناي) إلى الليبراليَّة الجديدة، وهذا يعني أنَّ نظريَّة القوَّة النَّاعمة تتناقض مع بعض مبادئ الليبراليَّة. فهو، أوَّلاً، يعترف بوجود بعض الفوضى في النّظام الدَّولي، ذلك أنَّ القانون ليس محترمًا دائمًا، بل إنَّ تطبيقه، والالتزام به يخضع لمصالح الدُّول الكُبرى، وبشكل خاص، الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة. فـ «غالبًا ما يُفهَم سياق السّياسة الدَّوليَّة باعتباره عالمًا فوضويًّا من الدُّول، الَّتي تسعى إلى الأمن؛ حيثُ تكون الأداة النّهائية (ولكن ليست الوحيدة) هي استخدام القوَّة العسكريَّة»[1].

وثانيًا، يعترف الليبراليُّون الجُدد بوجهة نظر الليبراليَّة التَّقليديَّة، القائلة إنَّ العولمة جعلت قوَّة الدَّولة تتَّجه نحو الانحدار، وهي في الواقع تقوّض قوَّة الدَّولة، لكنَّهم لا يستنتجون أنَّ الدَّولة باتت أقل قدرة على الصُّمود. ومع ظهور الجهات الفاعلة من خارج سُلطة الدَّولة، تخفت قبضة الدَّولة أكثر. ورغم هذا الاعتراف، يُركّز الليبراليُّون الجُدد بصورة أساس على الدَّولة، باعتبارها فاعلاً واحدًا، مؤكدين أنَّ الدَّولة لا تزال ذات أهميَّة.

لا يُنكر (ناي) أهمّيّة القوَّة الصُّلبة، بالنّسبة لدولة مثل الولايات المتَّحدة في مواجهة «الإرهاب». وهذا يمثّل تحدّيًا لنظريَّته؛ حيث إنَّه يخلع أحيانًا

---

١ - جوزيف ناي: القوة الناعمة، ص٥٥.

ثوب المُنظّر، ليرتدي ثوب السياسيّ. وهذا مفهوم بسبب منصبه. فهو يقول: «بصفتي مساعدًا سابقًا لوزير الدّفاع، فإنَّني سأكون آخر من ينكر الأهمّية المستمرَّة للقوَّة العسكريَّة. إنَّ دورنا العسكريَّ ضروريٌّ للاستقرار العالمي. والجيش جزء من استجابتنا للإرهاب»[١]. بل إنَّه يزعم أنَّ «الجيش يمكن أنْ يلعب في بعض الأحيان دورًا مهمًّا في توليد القوَّة النَّاعمة»[٢].

من الممكن أن يتمَّ إغواء النَّاس في المعسكر الآخر، والقول لهم إنَّ القوَّة الصُّلبة والخيار العسكري ضرورة لحسم الموقف، من أجل مصلحتهم، كأنْ يتمَّ تصوير الحاكم على أنَّه فاسد وظالم، رغم أنَّه قد يكون كذلك فعلاً. وهذا لا يتناقض مع جوهر الدَّولة الليبراليَّة. وبسبب ذلك يدعو (ناي) إلى القوَّة الذَّكيَّة، وهي «القدرة على الجمع بين القوَّة الصُّلبة والقوَّة النَّاعمة بفعالية»[٣].

لكنَّ (ناي) لا يتخلى عن القول إنَّ القوَّة النَّاعمة أكثر أهميَّة دائمًا، من القوَّة الصُّلبة، على المدى البعيد. ومن المشروع، تبعًا لذلك، استخدام القوَّة العسكريَّة في ظروف استثنائيَّة. تبقى القوَّة النَّاعمة عنده هي الأساس، ولكنَّ القوَّة الصُّلبة لا غنى عنها. فالمكاسب المشتركة بين الدُّول قد تجرُّ

١ - جوزيف ناي: القوة الناعمة، ص١٥.
٢ - جوزيف ناي: القوة الناعمة، ص١٠٦.
٣ - جوزيف ناي: القوة الناعمة، ص١٠٧.

إلى الصِّراع من أجل الحصول على الحصَّة الأكبر[١]. وحتَّى فكرة العولمة، لا تستلزم تعاونًا تلقائيًّا، بل إنَّ «الترَّابط الاقتصاديَّ المُتبادل يمُكن أن يستخدم أيضًا كسلاح»[٢].

يربط (ناي) بشكلٍ متكرّر، بين القوَّة النَّاعمة والولايات المتَّحدة، وهذا الرَّبط هو موضوع أكثر الانتقادات الموجَّهة إليه. فهو يبحث عن العوامل الَّتي يمُكن أنْ «تجعل الولايات المتَّحدة القوَّة الرَّائدة في السّياسة العالميَّة، حتَّى وقت متأخّر من القرن الحادي والعشرين»[٣]. ويعترف بأنَّ الحروب العسكريَّة تضرُّ بصورة الولايات المتَّحدة، لكنَّه يؤكّد أنَّ القوَّة النَّاعمة يمكن أن تتعافى بسرعة.

وفي الحقيقة، هذه مجرد أمنيات. فالولايات المتَّحدة رغم قوَّتها الهائلة؛ الصُّلبة والنَّاعمة معًا، وقدرتها حتَّى الآن على قيادة العالم، ومبادرتها إلى إخراج أهم الاختراعات والابتكارات مثل: الإنترنت، ومواقع التَّواصل، وآخرها الذَّكاء الاصطناعي؛ حيث إنَّ الآخرين من الأوروبيّين والصينيّين وغيرهم مجرَّد مقلدين، ولكنَّها تبقى القوَّة الأكثر كُرهًا لدى شعوب العالم، لا سيَّما الشَّرقيّ منه، بسبب تلك الحروب العسكريَّة في دول كثيرة مثل: الصومال والعراق وأفغانستان، ودعمها غير المشروط لـ«إسرائيل»، الَّتي

١ - جوزيف ناي: القوة الناعمة، ص٢١٢.
٢ - جوزيف ناي: القوة الناعمة، ص٢١٢.
٣ - جوزيف ناي: القوة الناعمة، ص٦٦.

تعتدي على الفلسطينيّين واللبنانيّين وغيرهم.

كتب (ناي) مقاله «القوَّة النَّاعمة»، ونُشر في مجلة السّياسَة الخارجيَّة، في عام ١٩٩٠، أي في نهاية الحرب الباردة، من أجل نفي أُطروحة تراجع الولايات المتَّحدة. ثم تحوَّل إلى كتاب «القوَّة النَّاعمة: الوسائل إلى النَّجاح في السّياسة العالميَّة»، نشره في عام ٢٠٠٤، بعد الحرب في العراق وانخفاض جاذبيَّة الولايات المتَّحدة على مستوى العالم. لكنَّ هذا السياق الَّذي كُتبت فيه المقالة، لا ينفي صلاحيَّتها لقراءة الاستراتيجيَّة الأمريكيَّة المستمرة في علاقتها بالآخرين من دول وشعوب، ولا تتحدَّى النَّظريَّة الليبراليَّة، الَّتي تحكم السّياسات الأمريكيَّة وتُوجّه عملها.

أقام (جوزيف ناي) نظريَّته حول «القوة الناعمة»، على مفهوم الليبراليَّة الجديدة، الَّتي تتبنَّاها الدَّولة. ولا شكَّ في أهمّية هذه النظريَّة الَّتي لم تولد من فراغ، بل إنَّها استندت إلى ممارسات فعليَّة للدَّولة الأمريكيَّة وللدُّول السَّابقة، الَّتي امتلكت القوَّة الصُّلبة، وزاوجت بينها وبين القوَّة النَّاعمة، واستطاعت أن تنشر معتقداتها وثقافتها وقيمها بأساليب متنوّعة.

لكن (ناي) لم يسجن نفسه بين أسوار هذه النَّظريّة، بل إنَّه كثيراً ما يخرج عليها، عندما يتحدَّث عن الحالات الاستثنائيَّة الَّتي تستدعي استخدام القوَّة الصُّلبة، أو حين يشير إلى القوَّة الذَّكيَّة، الَّتي تعني المُزاوجة بين القوَّة الصُّلبة والقوة النَّاعمة. وهذا يعني أنَّ النَّظريَّات ليس مغلقة، وليست نهائيَّة، بل إنَّها قابلة للنَّقد والتحويل.

ومن المهم بعد تَسييج هذه النَّظريَّة وكشف حدودها، معرفة أوجه هذه القوَّة النَّاعمة، الَّتي باتت تستخدمها الولايات المتَّحدة، على نحو خاص، في حروبها النَّاعمة على الآخرين. فهذه القوَّة ليست على نمط واحد، بل إنَّها متنوّعة ومتعدّدة المجالات، وتتراوح ما بين الفكر، والمعرفة، والاقتصاد، والتّجارة، والدبلوماسيَّة، والسيبرانيَّة، والتَّرفيه، والثَّقافة، والمعتقدات، والأخلاق، والسلوك. وهذا ما جعل بعض الباحثين يخرج بنوع ثالث من القوَّة يختلف عن القوَّتين: النَّاعمة والصُّلبة، سمَّاه «القدرة على الإرغام».

ثَالثًا: القُدرَةُ عَلى الإرغَام

طرح (ديفيد غومبرت)، و(هانس بيننديك) في دراسةٍ لهما مفهومًا ثالثًا، إلى جانب مَفهوميّ القوَّة الصُّلبة، والقوَّة النَّاعمة، وهو مفهوم «القدرة على الإرغام». وهو يختلف عن مفهوم القوَّة الذَّكيَّة، الَّتي تُعتبر تركيبًا من القوَّتين الصُّلبة والنَّاعمة[1]. فإذا كانت القوَّة الصُّلبة تتلخَّص في القوَّة العسكريَّة، والقوَّة النَّاعمة تعمل على الجوانب الدّبلوماسيَّة والثَّقافيَّة والفكريَّة، وما يشبهها، فإنَّ «القدرة على الإرغام» تُشير إلى القدرة على فرض الإرادة على

١ - ديفيد غومبرت وهانس بيننديك: القدرة على الإرغام (مواجهة الأعداء بدون حرب)، ص٥.

الآخرين باستخدام أدوات الضغط، سواء أكانت اقتصاديَّة، أم سياسيَّة، أم نفسيَّة، دون اللجوء إلى القوَّة العسكريَّة. فهذا المفهوم يقع في المنطقة الرماديَّة، بين القوَّة الصُّلبة، مثل الحرب العسكريَّة، والقوَّة النَّاعمة، مثل التَّأثير الثَّقافيّ.

والإرغام غير العسكريّ، الَّذي تقترحه الدّراسة، هو أداةٌ بديلةٌ عن القوَّة العسكريَّة التَّقليديَّة في السّياسَة الدَّوليَّة، وهو يركّز على الخيارات المتُاحة أمام الولايات المتَّحدة، لمواجهة الخصوم دون اللجوء للحروب. فهناك أسباب تجعل استخدام القوَّة العسكريَّة أكثر صعوبة، مثل ارتفاع التَّكاليف، والتَّحديات السّياسيَّة، وتطوُّر الدّفاعات العسكريَّة لدى الخصوم، مثل الصّين، وروسيا، وإيران.

والقدرة على الإرغام تَستخدم، لذلك، أساليبَ وأدوات لا تعتمد على القوَّة العسكريَّة، ولا على الاستمالة والإقناع، بل على الضَّغط والإرغام، مثل:

١. **العقوبات الاقتصاديَّة:** مثل تجميد أصول المال، والحظر التجاريّ، والعزل المِصرفيّ، وقطع المساعدات لإجبار الدُّول على تغيير سياساتها. وفرض قيود على التجار والاستثمارات، كما حدث مع إيران وروسيا.
٢. **الحظر على الأسلحة والتكنولوجيا:** لمنع الأعداء من تطوير قدراتهم العسكرية

٣. **الهجمات الإلكترونية:** لتعطيل أنظمة العدو الحساسة

٤. **استغلال موارد الطاقة:** توظيف نفوذ أمريكا في سوق النفط للضغط على روسيا وإيران.

٥. **الدعم غير المباشر للخصوم السياسيين:** من خلال تمويل حركات معارضة أو تشجيع التحولات الديمقراطية[١].

والمطلوب هو تحقيق الأهداف الاستراتيجيَّة بأقل تكلفة ممكنة، والتَّركيز على استغلال نِقاط ضعف الخَصم. والقسم المشترك بين هذه الإجراءات، هو كسر الإرادات، وإرخاء القبضة على السُّلطة. ويعترف الكاتبان أنَّ نتيجة خيار استخدام الإرغام ليست مضمونة؛ لأنَّ «العدوَّ يملك حريَّة الاختيار»[٢]. وقد تُفهَم القدرة على الإرغام، باعتبارها درجة ثانية في سُلَّم هرميّ، يبدأ بنعومة وينتهي خشنًا. و«القدرة على الإرغام» تكون متوسّطة بين القوَّتين[٣].

والعولمة هي الَّتي تُفسّر تراجع استخدام الولايات المتَّحدة للقوَّة العسكريَّة، وتنامي قدرتها على الإرغام[٤]. فانتشار التّكنولوجيا العسكريَّة بين الدُّول، حوَّل الخيار العسكريَّ إلى خيار أكثر صعوبة وخطورة، خاصةً

---

١ - ديفيد غومبرت وهانس بينندك: القدرة على الإرغام، ص٦.

٢ - ديفيد غومبرت وهانس بينندك: القدرة على الإرغام، ص٦.

٣ - ديفيد غومبرت وهانس بينندك: القدرة على الإرغام، ص٩.

٤ - ديفيد غومبرت وهانس بينندك: القدرة على الإرغام، ص٦.

مع دول مثل: الصّين وروسيا وإيران. ولأنَّ الولايات المتَّحدة تسيطر، بحسب (غومبرت) و(بيننديك)، على التّكنولوجيا؛ حيثُ إنَّ كلَّ جديد في التّكنولوجيا، من الجوَّال، إلى الإنترنت ومواقع التَّواصل الاجتماعيّ، وأخيرا الذَّكاء الاصطناعي قد ظهرت في أمريكا أوَّلًا. كما تُسيطر على الأسواق والبنوك؛ حيث تملك أربعة من جملة أكبر سبعة بنوك في العالم؛ إذ تملك الولايات المتَّحدة نسبة ٣٠ في المئة من أسهم الاستثمار الأجنبيّ، والدُّولار الأمريكي هو أساس التَّبادُلات في أسواق المصارف والعملات. وهي بذلك تقع في المرتبة الأولى بفارقٍ كبير عن سواها. ولديها الشَّركات السَّبع الإعلاميَّة الأولى في العالم، وتملك أقوى جهاز مخابرات، وتؤثّر بذلك على عمليَّات صُنع القرار، ولديها القوَّات البحريَّة الأكثر تفوُّقًا، ممَّا يجعلها شرطيُّ التّجارة الدَّوليَّة[1]. وهذا كلُّه يعطيها قدرةً أكبر على الإرغام.

و»القدرة على الإرغام» هي، على هذا النَّحو، جزء من استراتيجيَّات «المنطقة الرَّماديَّة»؛ حيثُ تسعى الدُّول إلى تحدي خصومها دون الوصول إلى صراعٍ مفتوح. وهذا النهج يُستخدم غالبًا، عندما تكون الحرب مكلّفة جدًا، أو غير مجدية. والمثال على ذلك، دعم روسيا للانفصاليّين في أوكرانيا، أو استخدام الولايات المتَّحدة للعقوبات ضدَّ إيران.

---

١ - ديفيد غومبرت وهانس بيننديك: القدرة على الإرغام، ص٧.

والهدف الأساس، كسر إرادة الخصم أو العدو، أو تغيير سلوكه دون إراقة دماء، مع التَّركيز على الفعاليَّة والتَّكلفة المنخفضة، مقارنةً بالحرب التَّقليديَّة. وعلى عكس القوَّة النَّاعمة، الَّتي تعتمد على الجاذبيَّة، فإنَّ الإرغام يعتمد على الضَّغط، لكنَّه لا يصل إلى حدّ العنف الواضح للقوَّة الصُّلبة. هذا التَّوازن يجعله أداةً مرنةً في السّياسة الدَّوليَّة.

لكنَّ الإرغام قد يفشل إذا تمكَّن الخَصم، أو الطَّرف المُعادي من التَّكيُّف، أو إيجاد بدائل. وعلى سبيل المِثال، فإنَّ العقوبات على كوريا الشَّماليَّة لم تُوقف برنامجها النَّوويَّ، بل عزَّزت اعتمادها على الصّين. والعقوبات على إيران لم تمنعها من مواصلة برنامجها النَّوويّ، وتصدير نفطها، وتطوير صناعاتها. فالإرغام يعتمد على افتراض ضعف الخَصم، لكنَّ الدُّول القويَّة، أو المرنة قد تُقاوم الضَّغط.

بل توجد مخاطر عكسيَّة؛ إذ قد يؤدّي الإرغام إلى تصعيدٍ غير متوقَّع. ومن ذلك، الهجمات المعلوماتيَّة الَّتي قد تستدعي ردًّا عسكريًّا، ممَّا يُناقض الهدف الأصليَّ بتجنُّب الحرب. والنَّتيجة، فإنَّ الإرغام قد يخلق أزمات جديدة بدلاً من الحلّ.

ومن النَّاحية الخُلُقيَّة، فإنَّ استخدام أدوات مثل: التَّضليل، أو دعم الجماعات المسلَّحة يثير تساؤلات حول الالتزامات الشرعيَّة والخُلُقيَّة؛ إذ كيف يُمكن لدولة أن تدَّعي الدّفاع عن القِيَم، بينما تمارس أساليبَ تخريبيَّةٍ؟

يحتاج الإرغام كي ينجح، إلى توفُّر معلومات دقيقة عن الخَصم في اقتصاده، ومجتمعه، ونقاط ضعفه. والفشل في جمع المعلومات قد يؤدّي إلى استراتيجيَّات خاطئة. والمثال على ذلك، فشل بعض العقوبات بسبب سوء تقدير مرونة الخَصم. والإرغام أيضًا، قد يُحقّق انتصارات قصيرة الأمد، لكنَّه قد يزرع بذور العداء المستقبليّ. فالعقوبات على العراق وسوريا وإيران، في العقود الأخيرة، عزَّزت الكراهية ضدَّ الغرب، والولايات المتَّحدة بشكلٍ خاص.

يُركّز الإرغام على الضَّغط الماديّ، ويغفل أحيانًا الإرادة الشعبيَّة، أو الهُويَّة الثَّقافيَّة، الَّتي قد تقاوم الضُّغوط. فشعوب مثل: روسيا وكوبا وإيران والعراق واليمن أظهروا مقاومةً استثنائيَّة، رغم الضُّغوط الاقتصاديَّة والسّياسيَّة.

وباختصار، تُقدّم «القدرة على الإرغام» نهجًا مرنًا ومنخفضَ التَّكلفة لتحقيق الأهداف الاستراتيجيَّة، مستفيدة من مزيج بين الضَّغط والتَّجنب للحرب العسكريَّة. لكنَّها ليست حلاً سحريًّا؛ فمحدوديَّتها تكمُن في مخاطرها العكسيَّة، وتعقيداتها الخُلُقيَّة، واعتمادها على افتراضات قد لا تتحقَّق. إنَّ التَّركيز المُفرط على الإرغام، قد يعكس ضعفًا في بناء استراتيجيَّات تعاونيَّة طويلة الأمد، ممَّا يجعلها أداةً فعالةً، ولكنْ غير مستدامة.

رَابعًا: فَاعليَّةُ التَّأثيرِ الثَّقَافيّ

يبقى التَّأثير الثَّقافيُّ أهمَّ أسلحة الحرب النَّاعمة. وهو يستند إلى رؤى

الغرب ذات البُعد الماديّ الأُحاديّ، الَّتي أنتجها مع بداية مرحلة الحداثة، وفرَّخت تيَّارات مختلفة، مثاليَّة، وعقليَّة، وماديَّة، ووضعيَّة، ووجوديَّة، وبراغماتيَّة، وغير ذلك. غير أنَّ الاتّجاه الماديَّ في التَّفكير، وتهميش الفِكر الدّينيّ إلى أقصى حدّ، هو الَّذي انتصر في النّهاية. وعندما ينتشر الفِكر الماديُّ بكلّ ألوانه، الماركسيَّة أو الوضعيَّة أو الوجوديَّة أو البراغماتيَّة، فذلك بفعل الحرب النَّاعمة، الَّتي يحمل أصحابها هذا الفِكر، الَّذي يُنكر الرَّوحانيَّات، ويَفصل المجتمعات عن معتقداتها وتقاليدها وقِيَمها، ويفتح الباب أمام الهبوط الخُلُقيّ والقِيَميّ، ويُعمّق الاختلافات بين الفئات الاجتماعيَّة.

إنَّ التَّأثير الثَّقافيَّ يمُكن أن يُستخدم لإعادة تكوين القِيَم والمعتقدات، فالتَّرويج للماديَّة بما هي جزء من هذه القوَّة، يُحوّل الأفراد إلى كائنات استهلاكيَّة تفتقر إلى العُمق الرُّوحي. في سياق الحرب النَّاعمة، يُصبح الفِكر الماديُّ أداةً لفصل المجتمعات عن جذورها الرُّوحيَّة؛ حيثُ تحُلُّ الممتلكات والمتعة محلَّ القِيَم الرَّفيعة، ممَّا يُسهّل التلاعب بها. وهذا التَّحوُّل يمُهد للهبوط الخُلُقيّ، إذ يُصبح الإنسان أسيرًا لرغباته بدلاً من مبادئه.

خسر الإنسان بُعدَه الرُّوحيّ في الثَّقافة الغربيَّة، الَّتي باتت جزءًا من الحرب النَّاعمة. وقد حذَّر مارتن (هايدغر -Martin Heidegger) (١٨٨٩ - ١٩٧٦)، في كتابه "الوجود والزمان"، من أنَّ التّكنولوجيا والماديَّة تُفقدان

الإنسان علاقته الأصيلة بالوجود[١]. فالتركّيز على الماديّ يُحوّل الحياة إلى تجربة سطحيَّة تفتقر إلى المعنى.

وإذا كان الإلحاد يمُثّل ذروة الفكر الماديّ، فإنَّه يستخدم أداةً قويَّةً لقطع الصّلة بين المجتمعات ومعتقداتها الدّينيَّة، الَّتي تُشكّل أساس تماسكها. والإلحاد عند الَّذين يتبنَّونه كما هي حالة (جان بول سارتر - Jean Paul Sartre) (١٩٠٥- ١٩٨٠)، في كتابه "الإنسانيَّة هي الوجوديَّة"، يُحرّر الإنسان من القيود، لكنَّه يتركه في فراغ وجوديّ[٢]، وهذا تناقض؛ لأنَّ الحريَّة الحقيقيَّة لا تُنتج الفراغ الوجوديَّ، بقدر ما تخلقه. ظنَّ (سارتر) أنَّ الأديان متشابهة، وأنَّ الالتزامات الخُلُقيَّة والعقلانيَّة تمُثّل قيودًا، رغم أنَّه يُدرك أنَّ هذا الفراغ قد يُؤدّي إلى فقدان البوصلة الخُلُقيَّة. يُصبح الإلحاد أداةً ناعمةً لتشكيك المجتمعات في قِيمها، ممَّا يُسَّهل نشر الفوضى الخُلُقيَّة.

ويربط (فرانسيس فوكوياما) في كتابه «نهاية التَّاريخ»، بين تراجع الدّين وارتفاع منسوب الفردانيَّة؛ لأنَّ الإلحاد المرتبط بالماديَّة يُنتج مجتمعات تفتقر إلى الرَّوابط الجماعيَّة. ويشير إلى أنَّ غياب المعتقدات الدّينيَّة أو الرُّوحيَّة الكُبرى، المرتبطة أحيانًا بالإلحاد أو العلمانيَّة، يؤدّي إلى

١ - مارتن هيدغر: الوجود والزمان، ص١٦-٤٠-٤٤.

٢ - جان بول سارتر: الوجود والعدم، ص٢٥-٣٠-٣٣-٤٠.

مجتمعات تُركّز على الرَّفاهية الفرديَّة، بدلاً من القِيم الجماعيَّة[١]. وهذا التَّراجعُ يُعمّق الهُوَّة بين الفئات الاجتماعيَّة، لتصبح المصالح الشَّخصيَّة المحرك الوحيد، ممَّا يتماشى مع أهداف الحرب النَّاعمة في تفكيك التَّماسك الاجتماعي.

خَامسًا: مُفارَقاتُ نِظامِ التَّفَاهَة

(يُقر آلان دونو -Alain Deneault)، في كتابه "نظام التَّفاهة"، أنَّ كثيراً من الكوارث في تاريخ الإنسانيَّة سببه تحوُّل الخبير المُتخصّص إلى أداة لصنع التَّفاهة والرداءة، وتكريسها. فهو يُوظّف في سياقات تتجاوزه ودون وعي منه[٢]. أصبح الذَّكيُّ المُتخصّص أداةً يستخدمه من هم أدنى منه قيمة، وأقل مستوى، وصار المال يشتري الأذكياء والعقول المُتخصّصة لتنفيذ أعمال شرّيرة. وهذه مفارقة؛ إذ كيف يستخدم تافه شخصًا ذكيًّا لتوظيفه في تنفيذ أعماله القذرة؟ والحقيقة أنَّ المال والإغراء هو السّر. فالتَّافه يملك المال، والذَّكيُّ يسقط تحت إغراء المال، أو يُضطر إليه، ويفعل ما يُطلب منه.

من المفارقات، أنْ تكون قوَّة العالم الغربيّ النَّاعمة والمغرية والمثيرة

١ - فوكوياما: نهاية التاريخ، ص٣٠٠-٣٢٠.

٢ - آلان دونو: نظام التفاهة، ص٨٢.

على مستوى الصُّورة، ذات مضمون رديء وتافه. انقلبت الرَّداءة والتَّفاهة إلى أداة قويَّة لإخضاع الآخرين، بل إخضاع الشُّعوب الغربيَّة نفسها للطَّبقة الرَّأسماليَّة المُهيمنة، والأرستقراطيَّة المتحالفة معها.

تروج في سوق الثَّقافة، الكتب التَّافهة، وروايات المتيَّمين بالأزياء، والنُّصوص الهابطة، وكتب التَّنمية البشريَّة، والأدب التّجاريُّ والابتذاليُّ، والأغاني المسمومة، والمسلسلات السَّخيفة، والأفلام العنيفة والإباحيَّة على حساب الكتب العلميَّة الجادَّة، والنُّصوص العميقة، وكتب الفِكر الخَصب، والفنون الرَّاقية، والأناشيد الهادفة، والأفلام القِيميَّة. فالنّظام الرَّأسماليُّ الحاكم على مستوى العالم، يشجّع ذلك؛ لأنَّه هو ما يخدم مصالحه. كما أنّ مخاطبة غرائز النَّاس أسهل كثيرًا من مخاطبة عقولهم. لقد جرى تجميد العقول وباتت مجرَّد أدوات لإنتاج الثَّروة عبر الاختراع والتَّطوير التّكنولوجيّ، بينما أخذت النَّزعات الشهوانيَّة، والميول الغريزيَّة والانفعلات العاطفيَّة تتمدَّد وتتوسَّع.

استحالت الحداثة الغربيَّة إلى حالة من التَّضخُّم الهائل للنَّزعة الماديَّة والاستهلاكيَّة، وتحوَّل الإنسان إلى وسيلة إنتاج بلا قيمة سوى ما تُدرُّه من أرباح لمالك رأس المال. ولم تعد لمفاهيم الحريَّة، والكرامة الإنسانيَّة حضور وأهميَّة. فـ «نظام التَّفاهة»، الَّذي عرَّفه (دونو)، بأنَّه «النّظام الاجتماعيُّ الَّذي تسيطر فيه طبقة الأشخاص التَّافهين على جميع مناحي الحياة، وبمُوجبه تتم مكافأة الرَّداءة والتَّفاهة، عوضًا عن العمل الجاد

والملتزم»[1]، بات هو الذي يحكم العالم الحديث.

لم يعد جوهر العمل يتحرك على أساس عقلانيّ في منطق الرَّأسماليَّة المتوحشة، الَّتي حوَّلت البشر إلى آلات لتحقيق فائض الإنتاج، ومراكمة الثَّروة، ولا يُقدَّم لهم إلَّا ما يؤمّن استمرارهم في الخدمة. وهنا، انتقل جوهر العمل من مفهوم الحِرفة إلى مفهوم الوظيفة. فالحرفة تعني المهارة، والعمل بموجبها بشغف وحريَّة، أمَّا الوظيفة، فهي حالة من الاستعباد، يعمل بموجبها الإنسان بقُوتِه ومتطلَّبات حياته، بما يخدم مصلحة نمو رأس المال.

لم يعُد الإنسان قادرًا على تخصيص وقت للمعرفة والاطّلاع العميق، وباتت الثَّقافة الموروثة شيئًا مقدَّسًا يَحرُم الاقتراب منه، ولا تجوز مراجعته أو نقده. والَّذين يفعلون ذلك، كثيرًا ما يُواجَهون بالإقصاء. وفي مجتمع لا يتجرَّأ على مراجعة معتقداته المتوارثة، وقِيَمه الاجتماعيَّة الرَّاسخة، ينزع إلى الهروب نحو ممارسة الغيبة والنَّميمة الجماعيَّة بدعوى النَّقد. أي إنَّ النَّقد في مثل هذا المجتمع، يترك المعتقدات والأفكار والقِيم والخُلُقيات، الَّتي تمثّل مآزق اجتماعيَّة حقيقيَّة، وتمنع أيَّ تقدُّم وتسام، ويتناول الأشخاص في خصوصيَّاتهم الَّتي قد لا يكون لها أيُّ تأثير على المستوى العام، وقد تُنسب لهم أمور لا صحة لها من الأساس.

---

١ - إدغار موران: المنهج (معرفة المعرفة، الأفكار)، ص ٤٧١.

سَادسًا: مَدَيَاتُ الحَربِ النَّاعمَة

تُحاول الولايات المتَّحدة وحلفاؤها، فرض تأثيرهم على دول وثقافات وشعوب أخرى خارج كتلتها. وهؤلاء المستهدفون هم غالبًا منافسون مثل، روسيا، والصّين، وإيران، والبلاد العربيَّة. ومقاييس نجاح المعسكر الغربيّ، بقيادة الولايات المتَّحدة، في حروبه النَّاعمة ضدَّ الشُّعوب المُستهدفة معقَّدة جدًا، لأنَّ ذلك يعتمد على الأهداف والأُطر الزمنيَّة، ووجهات النَّظر.

حققَّت الولايات المتَّحدة في حروبها النَّاعمة انتصارات واضحة، من النَّاحية التَّاريخيَّة. فبعد الحرب العالميَّة الثَّانية، استخدمت واشنطن خُطة مارشال (Marshall Plan) لإعادة بناء أوروبا الغربيَّة، ممَّا ربطها اقتصاديًّا وثقافيًّا بالمجال الأمريكيّ، وسمح ذلك بانتشار النّظام الاقتصاديّ الرَّأسماليّ، والثَّقافة الأمريكيَّة من خلال "هوليوود" بسرعة كبيرة. وفي الحرب الباردة، أسهمت إذاعة أوروبَّا الحُرَّة، والصَّادرات الثَّقافيَّة، في تآكل معنويَّات الاتحاد السوفيتي، ممَّا أسهم في انهياره النّهائي بحلول عام ١٩٩١.

وهذا إنجازٌ كبيرٌ، فالقوَّة النَّاعمة ساعدت في الصُّمود أمام قوَّة عُظمى دون حرب ساخنة. وحين نتقدَّم إلى القرن الحادي والعشرين، سنجد أنَّ العقوبات الاقتصاديَّة -الَّتي صنَّفها (ديفيد غومبرت) و(هانس بيننديك)، ضمن مفهومهما "القدرة على الإرغام"- تعطّل اقتصادات دول معارِضة للهيمنة الأمريكيَّة، ممَّا يجبرها على الجلوس إلى طاولة المفاوضات، أو

اختيار العزلة. والنَّجاح في هذه الحرب، أو الفشل فيها، مرتبط بالهدف منها؛ فإذا كان الهدف هو تغيير الأنظمة، فمن الواضح أنَّها فشلت حتَّى الآن، أمَّا إذا كان الهدف هو الاحتواء، فإنَّ النَّجاح نسبيٌّ وناقص؛ لأنَّ تلك البلدان استطاعت أن تحافظ على ثقافتها المحليَّة، وتقوّيها في وجه الموجات الهائلة للثَّقافة الغربيَّة، المدعومة بأحدث الابتكارات الإلكترونيَّة مثل: مواقع التَّواصُل والذَّكاء الاصطناعيّ.

إنَّنا عندما نرى كثيراً من الغربيّين من عامة النَّاس أو النُّخب، يتعاطفون مع قضايا العرب والمسلمين، أو يعتنقون الإسلام، فإنَّ ذلك يُعتبر فشلاً للقوَّة النَّاعمة الغربيَّة، ونجاحًا للقوَّة النَّاعمة المضادَّة. ليست حروب الغرب وأمريكا كلَّها انتصارات، بل يمكن القول إنَّها مُنيت بكثير من الهزائم، ولولا الخلل الدَّاخلي لدى الشُّعوب العربيَّة خاصَّة والمسلمة عامَّة؛ حيثُ تهمَّش ثقافة الإسلام، وينحسر الوعي بمخطَّطات الغرب وحقيقة ثقافته، الَّتي جعلت منها قوَّة ناعمة يحارب بها خصومه، لما حقَّق أيَّ نوع من النَّجاح.

أسَّس الغرب وأمريكا كثيراً من الجامعات في الدُّول العربيَّة والمسلمة، مضافًا إلى دعم كثير من المراكز البحثيَّة والجمعيَّات المدنيَّة، وهذا ما جعل الثَّقافة الغربيَّة تمثّل جوهر الوعيّ النَّخبويّ لدى الطبقة النَّافذة في هذه البلدان. لكنَّ ذلك لم يستطع القضاء على الموقف الرَّافض للسّياسات الغربيَّة في المِنطقة، ولا على النَّزعة النَّقديَّة للثَّقافة الغربيَّة.

إنَّ كثيراً من الجامعات والإنتاجات السينمائيَّة الإيرانيَّة والعربيَّة، وكثيراً من المحطَّات التلفزيونيَّة في المنطقة العربيَّة والإسلاميَّة، استطاعت أن تواجه الآلة الإعلاميَّة الأمريكيَّة، وتنتصر عليها في كثير من الأحيان. يُقدّم الإعلام في إيران روايته الخاصَّة المخالفة لرواية الإعلام الغربيّ، وفي الصّين تُقدّم معاهد كونفوشيوس الصّينيَّة، ولا يجاري الإعلام الرُّوسي الإعلامَ الأمريكيَّ فيما يقول وينشر، للحدّ من تأثير الثَّقافة الأمريكيَّة خاصَّة.

غير أنَّ الاختراق الكبير للمعسكر الشرقيّ، الَّذي كان يضمُّ أنظمة شيوعيَّة، كان ما يعرف بـ «الثَّورات الملوَّنة». فقد استخدمت الولايات المتحدة خُططًا ناعمة، مثل: تمويل منظمات غير حكوميَّة، ووسائل إعلام ومعارضة، لإحداث ثورات أطاحت بأنظمة الحكم هناك. وقبل ذلك انهار الاتّحاد السوفيتي؛ حيثُ كان الإعلام، و«هوليوود»، ومراكز البحث، والموسيقى، أدوات رئيسة في الحرب الباردة، فأسهم، مثلاً، راديو أوروبَّا الحرَّة والصَّادرات الثَّقافيَّة في تآكل معنويَّات الاتحاد السوفيتي، ثمَّ انهياره النّهائي بحلول عام ١٩٩١. وقد اعتُبر ذلك إنجازاً كبيرا للقوَّة النَّاعمة، الَّتي ساعدت في اختراق قوَّة عُظمى، وإسقاطها دون حرب ساخنة. لكنَّ روسيا الَّتي ورثت تركة الاتحاد المنهار، سرعان ما نهضت من جديد. أمَّا الصّين، الَّتي انتقلت مبكرًا من الاشتراكيَّة إلى الرَّأسماليَّة، فشددت قبضتها على هونغ كونغ، وهي تخطّط لاسترجاع تايوان إلى سيادتها. ولم تنجح

أمريكا أيضًا من خلال حروبها في العراق وأفغانستان، من تركيز أنظمة موالية لها، بل أنتجت الحرب حالة تتراوح بين العداء لأمريكا والمداراة لها.

وتشير بيانات العقوبات الصَّادرة عن وزارة الخِزانة، إلى أنَّ الولايات المتَّحدة فرضت أكثر من ١٢,٠٠٠ عقوبة نشطة حتَّى عام ٢٠٢٥، تستهدف الجميع، من فنزويلا وصولاً إلى إيران. وقد أثَّرت تلك العقوبات على النَّاتج المحلي الإجمالي في بلدان مثل إيران؛ حيث انخفض بنسبة ١٠-٢٠٪ على مدى عقد، وفقًا لتقديرات البنك الدَّوليّ. ورغم ذلك تتمسك إيران بمواقفها بفضل الدَّعم المحليّ.

إنَّ انتشار ممارسات مُخلّة بالآداب العامة، وقِيَم هابطة في العالم، يبدو كما لو أنَّه نجاح أمريكيٌّ في تصدير قيمها القائمة على إطلاق الرَّغبات، وتحوُّل العقل والتّكنولوجيا إلى أدواتٍ لتحقيق ذلك، وليس للسُّمو بالذَّات. وهذه الرَّداءة نلاحظها في الثَّقافة والوعي والأخلاق والسّياسة. لكن من المهم التَّأكيد أنَّ الثَّقافة الغربيَّة خاطبت الجانب الأسرع للاستجابة في الإنسان، فهي لم تخاطب فيه عقله، بقدر ما خاطبت غرائزه وميوله وشهواته.

و«الرَّداءة» هنا، ليست مرادفًا للاستجابة لحاجات طبيعيَّة، ومنها الغريزة والشَّهوة نفسها، ولكنَّها المرادف للتَّوقُّف عندها والاستغراق فيها؛ بحيث لا يكون للإنسان من هدف سوى إشباع غرائزه، وتجاوز المباح إلى

المحظور، وإهمال الاهتمام بتنمية الذَّات في قِيَمها ووعيها ومعارفها. والمأزق في الثَّقافة الأمريكيَّة هو غلبة النَّزعة الاستهلاكيَّة، والسَّطحيَّة في الوعي، وتدني القِيَم التَّقليديَّة لصالح الترفيه السَّريع والماديّ، مثل برامج الواقع، أو الأفلام الَّتي تُعلي الفرديَّة على حساب الجماعة. وقد صدَّرت أمريكا هذا التَّوجُّه العام بقوَّة، عبر هوليوود والموسيقى والعلامات التّجارية، منذ النّصف الثَّاني من القرن العشرين.

تنتشر نتفليكس (Netflix) وماكدونالدز (McDonald›s) وستاربكس (Starbucks) والموسيقى الغربيَّة من البوب (Pop) إلى الهيب (hip) هوب بنسب عالية، وحتَّى وسائل التَّواصل الاجتماعيّ، مثل: إنستغرام (Instagram) وإكس (X)، تعكس أنماطًا أمريكيَّة. والمؤثّرون يقلّدون "نمط حياة" الغربيّ، من الأزياء الدَّارجة إلى التَّباهي بالرَّفاهية. وهذا التَّغلغُل يشمل تأثيره قُرابة ثلثيّ الشَّباب العربيّ، كما أظهرت دراسة للمركز العربيّ للأبحاث سنة ٢٠٢٢.

ومع ذلك، لا زال الإنسان المسلم يحتفظ بقدر من قِيَمه، ويرفض المساس بمعتقداته. كما أنَّ الوعيَ السّياسيَّ في العالم العربيّ والإسلاميّ غالبًا ما يرفض الرّواية الأمريكيَّة؛ حيث تُظهر استطلاعات مركز بيو(Pew Research Center) لسنة ٢٠٢٣، أنَّ ٧٠٪ من العرب يُقيّمون السّياسة الخارجيَّة الأمريكيَّة سلبًا، خاصَّة في قضايا فلسطين والعراق، كما يرفض كثير من المثقَّفين والمفكرين، ترويج الثَّقافة الأمريكيَّة في بلادهم، ويرون

فيها محاولات لتغريب المجتمع. وفي إيران يسمى هذا التّسونامي الثَّقافي الغربيُّ بالغزو الثَّقافي، ويُقاوَم بشدَّة.

وهذا يعني أنَّ نجاحَ الغرب في تسويق ثقافته، ذات المضامين الرديئة، نسبيٌّ، خاصَّة في المجال العربيّ والإسلاميّ. فرغم المحاولات الكثيفة لتغريب هذه المجتمعات لغويًّا وثقافيًّا وفكريًّا، وحتى دينيًّا، ورغم وجود أذرع للغرب يُنفّذون مخطّطاته، مثل فرض تدريس العلوم باللغات الإنجليزيَّة أو الفرنسيَّة، وتهميش دراسة العلوم الإسلاميَّة، ومنع ظهور أيَّة صناعات مهمَّة، أو تحقيق أيّ نوع من الاكتفاء الذَّاتي، وإعاقة أيَّة مشاريع زراعيَّة أو تصنيعيَّة خاصَّة يقوم بها شباب متخصّصون، ولكنَّ -رغم ذلك كلّه النَّجاح لا يصل إلى مستوى ما يُنفَق من أموال، وما يُبذَل من جهود.

ويبدو أنَّ النَّجاح الَّذي تحقّقه الولايات المتحدة في جغرافيا أخرى، كما في أوروبَّا وأمريكا الجنوبيَّة وشرق آسيا وإفريقيا أكبر بكثير؛ حيث إنَّ الفراغ الدّينيَّ والثَّقافيَّ هائل هناك. فقد باتت دول كثيرة تتحدَّث لغة المستعمرين القُدامى، وتجعلها لغتها الرسميَّة، وتدرّس الثَّقافة والقوانين والأفكار الغربيَّة وتتبنَّاها، بل إنَّها تستهلك كل ما يُنتجه الغرب مقابل ما تقدّمه من ثروات باطنيَّة. وحتَّى بين دول الغرب نفسه، استغلَّت الولايات المتَّحدة الدَّمار الَّذي سببته الحرب في أوروبا بعد الحرب العالميَّة الثَّانية، واستخدمت خطَّة مارشال لإعادة بناء أوروبَّا الغربيَّة، وهو ما عنى ربطها اقتصاديًّا وثقافيًّا بالمجال الأمريكيّ.

● المَبحَثُ الثَّاني: الحَربُ الثَّقافيَّة

تتعدَّد صور الحرب النَّاعمة بين السّياسة والثَّقافة، وتشمل الجوانب الفكريَّة والنَّفسيَّة والاجتماعيَّة. فهذا هو المدخل إلى التَّلاعُب بوعي الشُّعوب، وإعادة تكوينه بالطَّريقة الَّتي تخدم أهداف المحتلّين.

أوَّلًا: أَقلَامُ المُستشرِقِينَ

ليس الاستشراق بصنفيه: التَّقليديّ والجديد، إلَّا جزءًا من أدوات الحرب النَّاعمة الغربيَّة على العالم العربيّ والإسلاميّ. فهما يُوغلان في تشكيل صور نمطيَّة، وإنتاج معرفة موجَّهة تخدم أهدافًا سياسيَّة وثقافيَّة، تريد تكريس الهيمنة وتبرير التَّدخُّل.

أسهم الاستشراق، بمفهومه التَّقليدي، الَّذي ظهر خلال العصر الاستعماريّ، وبحلَّته الجديدة في العصر الحديث، أسهم في بناء رواية غربيَّة تضع الشَّرق مادةً للدّراسة والسَّيطرة، ممَّا يُكرّس فكرة التَّفوُّق الغربيّ ويُبرّر سياساته.

كان الاستشراق التَّقليديُّ -الَّذي بدأ مع حركة الاكتشافات الجغرافيَّة والتَّوسُّع الاستعماريّ الأوروبيّ في القرنين الثَّامن عشر والتَّاسع عشر- أداةً معرفيَّة لخدمة المشروع الاستعماري. إنَّ مستشرقين، مثل (سيلفستر دي ساسي -Silvestre de Sacy)، و(إرنست رينان -Ernest Renan) (١٨٢٣-١٨٩٢)، ، قدَّموا دراسات عن اللغات والثَّقافات الشَّرقيَّة، لكنَّها

غالبًا ما كانت مُشبعة بصور نمطيَّة، تصوّر العرب والمسلمين متخلّفين، أو غير عقلانيّين، ممَّا مهد لتبرير السَّيطرة الاستعماريَّة تحت ذريعة "المهمَّة الحضاريَّة".

عمل بعض المستشرقين، بصورة واضحة أو خفيَّة، لصالح الحكومات الغربيَّة. وكانوا يطرحون الشُّبهات عن الإسلام لسلخ المسلمين من دينهم، وتعميق الانقسامات المذهبيَّة، ممَّا يُسَّهل السَّيطرة السّياسيَّة والاقتصاديَّة.

وانطلاقًا من خلفيَّاتهم العلمانيَّة أو المسيحيَّة، حاول المستشرقون تحليل الإسلام بمناهج نقديَّة غربيَّة، مثل النَّقد التَّاريخيّ للنُّصوص، من أجل طرح شُبهات عن القرآن أو الحديث، وطمس الحقائق بخصوص التَّاريخ الإسلاميّ، من أجل التَّشكيك في أصالة التَّشيُّع العقلانيّ المناضِل داخل الإسلام، وتصويره كما لو كان دينًا آخر، من أجل إبعاد النَّاس عنه. والتَّركيز الاستشراقيُّ على إبراز الشُّبهات المتعلّقة بعقيدة الإسلام وتشريعاته، كان الهدف منه، أحيانًا، تصوير الغرب كيانًا حضاريًّا متفوّقًا، ونزع الأصالة والعقلانيَّة عن العقائد القرآنيَّة.

هاجم كثير من المستشرقين الإسلام، ولم يعترفوا بمصدره الإلهيّ، ولا بمنهجه العقلانيّ، وكثير منهم أهمل قُوَّته العَقديَّة والثَّقافيَّة، وسرعة انتشاره وتأثيره في الشُّعوب والقوميَّات المُختلفة. وقد وصف المستشرق الفرنسي (إرنست رينان) مثلاً، الإسلام بالعائق أمام التَّقدُّم العقليّ والعلميّ، كما ظهر بوضوح في محاضرته الشَّهيرة "الإسلام والعلم"، الَّتي ألقاها في ٢٩

مارس ١٨٨٣، في جامعة السوربون بباريس، ونُشرت لاحقًا في صحيفة "Journal des Débats" في اليوم التَّالي، ثمَّ أُعيد نشرها ضمن مجموعة أعماله.

في هذه المحاضرة، وصف (رينان) الإسلام، بأنَّه يحمل "تعصُّبًا" و"استخفافًا بالعلم"، واعتبر أنَّ العقل العربيَّ، الَّذي ربطه بالإسلام، لا يميل إلى الفلسفة أو العلوم الما ورائية بطبيعته. أهمل (رينان) حقيقة أنَّ الفلسفة والفكر والثَّقافة والعلوم الغربيَّة، إنَّما تأسَّست على جهود العلماء المسلمين في المجالات المختلفة. وأنَّ المكتبات الأوروبيَّة لا تزال مليئة بالمخطوطات العربيَّة، وكثير منها لا يُسمح إلى اليوم لأحدٍ بالاطّلاع عليها، إلَّا النُّخبة من الغربيّين.

هذه الرُّؤية، أسهمت في تكريس فكرة أنَّ الغربَّ يجب أنْ "يحرّر" الشَّرق من تخلُّفه. والحقيقة أنَّ الاستشراق التَّقليديَّ، بوصفه امتدادًا للاستعمار، في جزء منه على الأقل، حشر الشَّرق في صورةٍ جامدةٍ تخدم طموحات الغرب في الهيمنة. نسي المستشرق الغربيُّ تاريخه القريب، حين كانت أوروبَّا تسبح في ظلام الجهل والتَّخلُّف والقذارة، وكان الإنسان الأوروبيُّ لا يعرف، حتَّى، كيف ينظّف نفسه، وباشر مهاجمة العرب والمسلمين، عندما رأى أنَّهم باتوا يعانون حالةً من الضَّعف، وعمل ما بوسعه ليطوّل سُباتهم.

أمَّا الاستشراق الجديد، الَّذي ظهر في العصر الأمريكيّ، في سياق ما بعد الحرب العالميَّة الثَّانية، فقد تحوَّل إلى أداة أكثر تعقيدًا، تعتمد على

الإعلام، والدّراسات الأكاديميَّة المُوجَّهة؛ لدعم سياسات مثل "الحرب على الإرهاب". وهذا النَّوع من الاستشراق، يُركز على تقديم العرب والمسلمين، بوصفهم يمثّلون تهديدًا أمنيًّا، ممَّا يبرّر التَّدخُّلات السّياسيَّة، والعسكريَّة تحت غطاء نشر الدّيمقراطيَّة، أو مكافحة التَّطرُّف.

إنَّ مستشرقًا جديدًا مثل برنارد لويس (Bernard Lewis) (١٩١٦-٢٠١٨)، المؤرّخ البريطاني-الأمريكيّ، لم يتردَّد في كتاباته، مثل "أين الخطأ؟" (٢٠٠٢)، في تقديم تحليل يربط بين "تخلُّف" العالم الإسلاميّ والإرهاب، داعيًا إلى إعادة تشكيل الشَّرق الأوسط. وهي أفكار كان لها تأثير على صُنَّاع القرار الأمريكيّين.

وقد وصف (إدوارد سعيد)، في كتابه "الاستشراق" (١٩٧٨)، الاستشراق بأنَّه "خطاب سلطوي"، يعكس علاقة قوَّة وهيمنة بين الغرب والشَّرق. وقال: إنَّ "الاستشراق ليس مجرَّد دراسة بريئة، بل هو أداة للسَّيطرة السّياسيَّة والثَّقافيَّة"[١].

لم يكن الاستشراق، في معظمه، يريد تقديم دراسات علميَّة عن الإسلام، بل كان أداةً إعلاميَّة وأيديولوجيَّة لتشويه صورته، وشن حرب ناعمة ضده، خدمةً لأهداف سياسيَّة، حتَّى أنَّ (برنارد لويس) تحوَّل من باحث إلى داعية للحرب.

---

١ - إدوارد سعيد: الاستشراق، ص٢-٣-١٢-١٥.

كان الاستشراق بالأساس، يُنتج صورًا نمطيَّة، مثل العربي الإرهابي أو المرأة المضطهدة، للتَّأثير على الرَّأي العام الغربيّ، ممَّا يُسَّهل قبول السياسات العدائيَّة. ولتبرير تدخُّله في شؤونه، يُصوّر الاستشراق الشَّرق فوضويًّا ومتخلفًا، ويُقدَّم التَّدخُّل الغربيُّ، بوصفه حلاً ضروريًّا. ومن خلال تشكيكه في معتقدات الإسلام، وتقديمها بشكل يتعارض مع متطلَّبات الحياة المعاصرة، يُحاول الاستشراق تقويض الهُويَّة الإسلاميَّة. لقد جعل (صمويل هنتنغتون-Samuel Huntington) في كتابه "صدام الحضارات"، الإسلام يمُثّل تهديدًا حضاريًّا للغرب، مؤسّسًا لرواية استشراقيَّة جديدة، تدعم الصّراع الثَّقافيَّ. ولا سبيل للعرب والمسلمين سوى مواجهة الرؤى الاستشراقيَّة، من خلال دراسة الغرب بطريقة علميَّة، لكشف حقيقة أنَّ الاستشراق أداة لفرض التَّبعيَّة الثَّقافيَّة.

ثَانيًا: تَجنيدُ الحَداثيّينَ

تَلقَّف الكُتَّاب الحداثيُّون العرب وغيرهم، أُطروحات الاستشراق عن الإسلام، وصاغوها بأساليب أكثر نعومة دون أن يتخلُّوا عن مضامينها الرَّافضة للإسلام في مُعتقداته، وتشريعاته، وقِيَمه. واستطاع الغرب فعل ذلك، بعد أنْ نجحَ في استقطاب أعداد مهمَّة من الطُّلاب، والباحثين ضمن جامعاته، وجعلهم يفكّرون بالطَّريقة الَّتي يُريدها.

وعلى هذا النَّحو، جُنّد مثقفون مؤمنون بالثَّقافة الغربيَّة. والجهات

الَّتي تجندهم قد تكون معلومة وقد تكون غامضة. لكنَّ مسار أفكارهم وتداعياتها، تجعلهم مكشوفين أمام من يُدرك كيف تُدار لُعبة الحرب النَّاعمة على مستوى العالم العربي والإسلامي، الَّذي يعتبره الغرب أخطر أعدائه التَّاريخيّين، بسبب رصيده الدّينيّ والحضاريّ العميق والثَّري، رغم أنَّه يحاول أنْ لا يُظهر ذلك. وهو يركّز عمله على المسلمين عمومًا لهذا السبب.

يدرك الغرب أنَّ الباحثين والمفكّرين يملكون قدرة كبيرة على التَّأثير في الجمهور، رغم أنَّ ذلك قد يكون بطريقة مُلتوية وغير صريحة. فهم عادة يكتبون للطَّبقة المثقَّفة، والطبقة المثقَّفة أو المتعلّمة هي الَّتي تنقل أفكارهم إلى النَّاس. فالمدرّس، مثلاً، عندما يقرأ لمُفكّر، ينقل أفكاره أو بعضها لطلبته، والطَّالب ينقل تلك الأفكار إلى الأسرة والمجتمع والمحيط الأوسع. وبسبب ذلك، من الأهميَّة بمكان صناعة المُثقَّف الواعي والعارف بثقافته وتاريخه ودينه وقِيَمه، والبعيد عن التَّأثر بثقافة الآخر «المهيمن»، الَّذي يريد مدَّ نفوذه.

إنَّ ما يكتبه «المُفكّرون» عن مسائل علميَّة، ودينيَّة، واجتماعيَّة، كالفلسفة والتَّاريخ والكلام والعنف والجنس والمخدّرات والمِثليَّة والأخلاق، يصل إلى المجتمع، ويؤثّر في طريقة تفكيره. وما لم يكن المثقَّف ملتزمًا بقضايا أمَّته، فإنَّه سيكون تابعًا فكريًّا، وخادمًا لمصالح القُوى الأُخرى.

يعترف الكُتَّاب الغربيُّون بوجود هذه المداخل، ويقولون إنَّ القوَّة

النَّاعمة تعتمد أيضًا على صناعة رأي عامّ، عبر أدوات مثل: الجامعة والإعلام[١]. وتجنيد الباحثين لنشر موضوعات مُثيرة للانقسام، يمُثّل جزءًا من استراتيجيَّة لنشر الفوضى الفكريَّة؛ إذ غالبًا ما تُروَّج أفكار حول تاريخيَّة القرآن، وعدم صلاحيَّة المنظومة التَّشريعيَّة الإسلاميَّة لمجاراة العصر، وخرافيَّة المعتقدات القرآنيَّة، من خلال القول إنَّها أساطير كانت متداولَة، أو إنَّها رموز وإحالات.

إنَّ «النُّخب الفكريَّة يمُكن أن تُجنَّد بوعيّ، أو بغير وعي لخدمة مصالح القُوى المهيمنة، من خلال توجيه النّقاش العام نحو قضايا تُشتّت الانتباه، أو تُثير الانقسام»، كما يقول (نعوم تشومسكي - Noam Chomsky)[٢]. وهو يشير إلى أنَّ التَّركيز المبالَغ فيه على مواضيع مثل: المخدّرات أو المِثليَّة، قد يكون طريقةً لصرف الانتباه عن قضايا سياسيَّة واقتصاديَّة أعمق، ممَّا يدعم فكرة وجود جهات غامضة وراء هذه الجهود.

ثَالثًا: تَخريبُ التَّعليم

من المثير أن يكون أغلب خريجي الجامعات «أمّيُّون جامعيُّون»، يقرأون ويكتبون ويجيدون عملاً متخصّصًا، لكنَّهم ليسوا مثقَّفين، ولا

١ - جوزيف ناي: الحرب الناعمة، ص٣٠-٣٣.

٢ - نعموم تشومسكي وإدوارد هيرمان: صناعة الموافقة (الاقتصاد السياسي لوسائل الإعلام)، ص٣٢-٣٣.

يُجيدون ربط أعمالهم بالواقع، ولا يعرفون نتائج أعمالهم، ولا يشعرون بمسؤوليَّاتهم تجاه ما يقومون به لصالح مشغليهم. فهم لا يفهمون الواقع ومحرّكاته، والقُوى الكامنة وراءه، والأهداف المُتوخَّاة وراء ترويج ممارسات معيَّنة، وألوان ثقافيَّة محدَّدة.

إنَّ الفجوة عميقةٌ، بين التَّعليم الأكاديميّ، والثَّقافة العامَّة، والوعي الشامل بالسّياق الَّذي يعمل فيه الخريجون. فكثير منهم يمتلكون مهارات تقنية أو تخصُّصيَّة عالية، تمكّنهم من أداء وظائفهم، لكنَّهم يفتقرون إلى القدرة على التَّفكير النَّقديّ العميق، وربط ما يفعلونه بالصُّورة الأكبر، سواء أكان ذلك على مستوى المجتمع، أم لجهة الآثار طويلة الأمد لعملهم.

وهذه الظَّاهرة قد تكون نتيجة تركيز النُّظم التَّعليميَّة على الجوانب العمليَّة والمهنيَّة، على حساب التَّعليم القائم على التَّفكير النَّقديّ الحُر، الَّذي ينمّي الوعيَ بالمسؤوليَّة والعلاقات بين الأشياء. وقد يلعب أيضًا دورًا، هنا، الضَّغط الاجتماعيُّ أو الاقتصاديُّ، الَّذي يدفع الخِريجين للتَّركيز على إرضاء «مُشغليهم» دون التَّفكير في التَّداعيات الأوسع.

يواجه التَّعليم مشاكل حقيقيَّة، يبدو أنَّها مقصودة، من أجل تخريج مجموعات من الطُّلاب الوظيفيّين، المستعدين لفعل ما يُطلب منهم دون اهتمام بمضمونه وتداعياته. كما توجد مشكلة في القِيَم الاجتماعيَّة الَّتي تحيط بالعمل، فالمأزق مزيج من الاثنين.

إنَّ النُّظمَ التَّعليميَّة الحديثة، في كثير من الأحيان، تُصمَّم لتلبية

احتياجات السُّوق، أكثر من تربية أفراد واعين ومثقفين بالمعنى الشامل. والتَّركيز يَنصَّب على إنتاج خِريجين «جاهزين للعمل» بمهارات محدَّدة، ممَّا قد يُهمل تنمية التَّفكير النَّقديّ، والوعي الخُلُقيّ، والقدرة على ربط العمل بالسّياق الاجتماعيّ والإنسانيّ الأوسع. وهذا يخلق حالةً من الأميَّة الجامعيَّة، يجعلنا أمام أشخاص متعلّمين تقنيًا، لكنَّهم غير قادرين على فهم الآثار العميقة لما يقومون به.

لكنَّ ذلك لا يقلّل من أهمية القِيَم الاجتماعيَّة، الَّتي تلعب دورًا مؤثّرا بقوة، فالمجتمعات، الَّتي تمُجّد النَّجاح الماديَّ والإنتاجيَّة على حساب التأمُّل والتَّفكير العقليّ، تدفع الأفراد للعمل كآلات دون التَّساؤل: «لماذا» أو «من يستفيد»؟ وهذا الضَّغط يُعزّز من فكرة أنَّ العمل مجرَّد وسيلة لكسب العيش، وليس جزءًا من مسؤوليَّة أكبر تجاه العالم.

باتت مراكز التَّعليم والمعرفة، كما هي الجامعات عنوانًا للرَّداءة. وبدلاً من أن تضطلع الجامعات بدورها التَّنويريّ والتَّعليميّ، فتفرز للمجتمع العلماء والمفكرين، الَّذين يشتبكون مع تعقيدات الواقع وضمور الوعي، من أجل إنقاذ الإنسان من الغرق في متاهات الغريزة والوعي المسطَّح، باتت تخرّج لنا «خبراء» أو ما يشبه ذلك، مهمَّتهم إضفاء الشَّرعيَّة على الأوليغارشيَّة (Oligarchy) الاقتصاديَّة المهيمنة، والجماعات السّياسيَّة الحاكمة، والتَّعمية على أخطائها وتجاوزاتها، كما هي إفرازات التَّلوُّث البيئيّ، الَّتي تُسببه الصّناعات الرَّأسماليَّة، وافتعال الحروب من أجل

الهيمنة والنَّهب والتَّوسع، وممارسات مسخ الوعي، الَّذي يمارسه الإعلام، والدَّجل الَّذي يُقدَّم باسم العلم، في المراكز الَّتي تُعدُّ علميَّة وبحثيَّة، كما التَّرويج لشركات الأودية والغذاء، الَّتي تُولّد الأمراض المتسلسلة.

لم يعد هناك مكان للتَّفكير النَّقدي، والتَّأمُّل العميق في الوقائع والأفكار والأشياء، وفسح المجال للنَّزعة التّقنية ذات المنحى الاختزاليّ، بعيدًا عن القواعد والأعراف العلميَّة والأكاديميَّة. ولذلك، يَكثرُ "الخبراء" ويقلُّ "العلماء" و"المفكرون" الحقيقيُّون. بل صارت الجامعات تخرج ما بات يُسمَّى بـ"الأميّ الثَّانويّ"، وهو شخص يُتقن المعارف التّقنية والعمليَّة، لكنَّه فارغ -فكريًّا ودينيًّا وأيديولوجيًّا- وعاجز عن التَّعامل مع المسائل الفِكريَّة والمعرفيَّة العميقة، والكثيفة في معانيها ودلالاتها.

وفيما يتعلّق بالتاريخ الإسلاميّ، يُصرُّ الغرب على تشويه التَّاريخ الإسلاميّ في المناهج التَّعليميَّة؛ حيثُ تُطمس إنجازات الأبطال الحقيقيّين، وتقديم الصَّعاليك والمنافقين والسُّفهاء أبطالاً بدلا منهم. وفي الجانب العِلميّ تُقزَّم الإنجازات المعرفيَّة والعلميَّة للحضارة الإسلاميَّة، من أجل زرع شعور بالنَّقص لدى الأجيال الجديدة.

لا يهمل الغربُ السَّيطرة على العقول، الَّتي يعتبرها مفتاح هيمنته؛ فيركّز على مقولات فارغة، مثل إصلاح التَّعليم، الَّتي تعني نقيضها، فيفرض مناهج تعليميَّة تمجّد الرُّؤى العلمانيَّة والأفكار الوضعيَّة والفلسفات الماديَّة والرُّؤى الإلحاديَّة، وتُهمل العلوم والمعارف والنَّظريَّات الإسلاميَّة.

وهو لذلك يشجع التَّعليم باللغات الأجنبيَّة مثل الإنجليزيَّة والفرنسيَّة على حساب اللغة العربيَّة، لإضعاف ارتباط الأجيال بالنُّصوص الدّينيَّة الأصليَّة، حتَّى أنَّنا لا نكاد نجد أمَّة تدرّس العلوم في مدارسها وجامعاتها بلغة المستعمرين سوى العرب.

ولا تكتمل السَّيطرة على العقول، دون اختراق للمؤسَّسات الدّينيَّة، وإبعادها عن الدّراسة العلميَّة الجادَّة للدّين، من أجل الوصول إلى الحقائق الإسلاميَّة كما جاء بها الوحي. وهو يضعها تحت الرَّقابة المُشدَّدة من خلال تعيين قادة وحُكَّام موالين له. وكثيراً ما يستخدم الغرب سلاح التَّشكيك في العلماء الحقيقيّين، واعتبارهم تقليديّين، والدعوة في المقابل إلى اعتماد "دعاة متطرّفين"، أو "دعاة حداثيّين"، يُقدّمون تفسيرات للدّين مناسبة لمصالح الغرب وأتباعه.

رَابِعًا: إِعلَامُ التَّفاهَةِ

يستثمر الغرب في صناعة إعلام، ويُصوّر العرب شعوبًا متخلّفة ومتعصّبة، وتقديم خصومهم وأتباع النَّمط الغربيّ في الحياة على أنَّهم أبطال ومتحرّرون. ورغم أنَّ ذلك قد ينطبق على بعضهم، لا سيَّما أولئك الَّذين صنعهم بنفسه، كما هي الجماعات السَّلفيَّة المتطرّفة، لكنَّ ذلك يستهدف العرب والإسلام والمسلمين بمجموعهم، من أجل تقديم صورة مُسيئة عن دينهم. فالدّين في ذاته هو المُستهدف بالأساس.

وبالتَّوازي، يُشجّع الإعلامُ الغربيُّ التَّفاهة بكلّ صورها. وبتنا نرى اليوم عددًا كبيرًا من شبكات التلفزيون، ومواقع الإنترنت، ومنصَّات التَّواصل المرتبطة بأنظمة عربيَّة تابعة للغرب، ترفع التَّافهين، وتحطُّ من قدر العلماء والمفكرين والأحرار، الَّذين يرفضون السَّير في الطَّريق الَّذي رسمته أجنداته.

وصلت التَّفاهة بالإعلام الغربيّ إلى الحدّ الَّذي يُناقش ملائمة إطالة (جاستن بيبر -Justin Bieber) لشاربه، أو تفاصيل زواج (الأمير هاري -Prince Harry) و(ميغان- Meghan) لعدَّة شهور، وهي أمثلة تتكرَّر في شبكات إعلاميَّة عربيَّة، تنقل عنه في كثير من الأحيان ذلك، وتُضيف إليه تفاهات مُغنّين، وممثّلين عرب. توجد تغطية مُكثَّفة لشؤون "المشاهير" تتعلَّق بحياتهم الخاصَّة، من زواج وطلاق وخلافات بينهم، على حساب قضايا أكثر أهميَّة مثل التَّعليم، أو الصّحة، أو الفساد. وهذا ليس إلَّا جزءًا بسيطًا من منظومة التَّفاهة في الإعلام، النَّاتجة عن المنافسة التّجاريَّة، والضُّغوط السّياسيَّة، واتّباع استراتيجيَّات جذب الجمهور، بغض النَّظر عن العُمق الفكريّ.

يُركَّز على الإثارة، وتُخصَّص مساحات كبيرة للجرائم الفرديَّة، أو الحوادث العرضيَّة، مع تضخيم تفاصيلها لجذب المتابعين، دون تحليل أسبابها الاجتماعيَّة، أو تقديم حلول. وعندما يكون هناك تحليل سياسيٌّ؛ فإنَّه غالبًا، ما يكون سطحيًّا ومسيَّسًا وموجَّهًا لمصلحة جهات معيَّنة، بعيدًا عن أيّ نقد موضوعيّ بنَّاء يكشف الحقائق.

إنَّنا نرى، كيفيَّة الاستخدام المُفرط للبرامج الترَّفيهيَّة؛ حيثُ تهيمن برامج الضَّحك الغبيّ، والألعاب الطُّفوليَّة، وفي بعض تلك البرامج يبلغ الانحطاط مستويات قياسيَّة؛ حيثُ الاستسلام للإثارة الجنسيَّة أو العنصريَّة، فتُستخدم لغةٌ إيحائيَّة، وصور مُبتذلة لزيادة التَّفاعل، أو الترَّويج لخطاب يُعمّق التَّمييز الاجتماعي بين النَّاس.

ولا يتردَّد الإعلام في استخدام الإشاعات، الَّتي تعجُّ بها مواقع التَّواصل. وهو يركّز على قضايا فرعيَّة مثل: برامج الطَّبخ والأزياء الدَّارجة، بينما تُهملُ قضايا اجتماعيَّة رئيسة مثل: البطالة وحقوق العمَّال والعُنف الاجتماعيّ وتلوُّث البيئة وتدني مستويات التَّعليم والهبوط الخُلُقيّ.

ولا نكاد نرى برامج استقصائيَّة، وتحقيقات عميقة تكشف الفساد، وتناقش قضايا عامَّة تهمُّ المجتمع، بينما تُهيمن محطات الأخبار السطحيَّة والسَّريعة، الَّتي تخدم أهداف أصحابها، دون أيّ عمق تحليليّ لخلفيَّات الأحداث. وهذا ما أسقط الإعلام في التّكرار المُمِلّ؛ حيثُ يُعاد تدوير الأخبار نفسها بطريقةٍ مبتذلة لملء الفراغ الزمنيّ دون إبداع أو تجديد.

يعتقد هذا الاتجاه، الَّذي يُصرُّ على نشر التَّفاهة، أنَّ هذا النَّحو من العمل الإعلامي هو من مقتضيات الإعلام التّجاري، الَّذي يعتمد التَّماهي مع المنسوب المُنخفض لوعي الجمهور، لجذب انتباهه وتحقيق الرّبح. فمثل هذه الأخبار والقصص الشَّخصيَّة للمشاهير، من المغنين والممثّلين والرّياضيّين، الَّتي تُقدّم التَّفاهة في صور جميلة تلقى رواجًا؛ لأنَّها تتطلَّب

جهدًا فِكريًّا أقل، وتوفّر تسلية سريعة، وتُثير فضولاً عاطفيًّا لدى النَّاس.

وقد يعود هذا الأمر إلى اللَعب على طبيعة الدّماغ البشريّ، الَّذي ينجذب للدّراما والقصص الشَّخصيَّة، أكثر من المواضيع المُعقَّدة، مثل العلوم أو السّياسة العميقة، إلاَّ إذا قُدّمت بطريقة مشوّقة. مضافًا إلى ذلك، تَعرف الشَّركات الإعلاميَّة أنَّ التَّغطية المطوَّلة لموضوع معين، مثل الزواج الملَكي، تجذب ملايين المشاهدين، ممَّا يعني إعلانات أكثر وأرباح أعلى.

والمثال الآخر ما يحدث في عالم الرّياضة؛ حيثُ يحصل لاعب كرة قدم مثلاً، على أموال تفوق جوائز علماء نوبل، رغم أنَّ هذه الجائزة مثيرة لكثير من التَّساؤلات حول طبيعتها وأهدافها. وهذا التَّفضيل للرياضيّين على العلماء والمفكّرين يعكس حركيَّة السُّوق، وليس قِيمة العمل الجوهريَّة. إنَّ لاعب كرة القدم يُولّد إيرادات ضخمة من تذاكر المباريات، وحقوق البثّ، والإعلانات، وبيع المُنتجات، وهو جزء من صناعة ترفيهيَّة عالميَّة بمليارات الدولارات. بينما العلماء، رغم أهميَّة اكتشافاتهم وإبداعاتهم، لا يُنتجون "منتجًا" يستهلكه الملايين. والجوائز العلميَّة رمزيَّة، وليست مصمَّمة لتعكس القيمة الاقتصاديَّة، بل الإنجاز الفِكريّ. فالفرق هنا بين الطَّلب الشَّعبيّ، الَّذي يريد التَّرفيه، ويرفض القِيمة طويلة الأمد للعِلم.

يُطرح سؤالٌ هنا عن سبب اتّباع النَّاسِ التافهين وتقليدهم. وفي الحقيقة، يميل النَّاس إلى تقليد من يحظى بالشُّهرة أو السُّلطة، سواء أكانوا "تافهين" أم لا، بسبب غريزة اجتماعيَّة تُعرف بـ"التَّأثير الاجتماعيّ". فالإنسان

بطبعه يبحث عن القبول والانتماء، فيبدو -بنظره- المشاهير أو الأشخاص المؤثّرون أمثلة "ناجحة" يسهل تقليدها. بل إنَّ التَّفاهة نفسها تجذبُ لأنَّها بسيطة ومسلّية، على عكس التَّعقيد الَّذي يتطلَّب مجهودًا.

أمَّا كيف يصل "أتفه النَّاس" إلى مراكز السُّلطة؟ فهذا سؤال ينطبق على جميع مراحل التَّاريخ. ليست السُّلطة مرتبطة دائمًا بالكفاءة أو العلم والوعي الفِكريّين، بل إنَّ الغالب ارتباطها بالمكر والفساد والخداع. ولذلك كانَ الأنبياء (ع) أقلَّ النَّاس وصولاً للسُّلطة رغم كثرتهم؛ لأنَّهم يرفضون ممارسة الخِداع والغدر، ويلتزمون الصّدق والوفاء.

وفي الدّيمقراطيَّات الحديثة -الَّتي قد تعتمد على الجاذبيَّة الشَّخصيَّة، أو الوعود السَّهلة- تلعب ممارسات الدَّجل والخداع دورًا كبيرًا. وفي أنظمة أخرى، قد تصل شخصيَّات إلى السُّلطة من خلال العلاقات الخاصَّة في دوائر السُّلطة والقرار، أو من خلال المال، أو من خلال استغلال نقاط ضعف النّظام. قد تكون التَّفاهة ميزةً هنا؛ لأنَّ الشَّخص "التَّافه" أو "السَّيئ" قد يكون أكثر قابليَّة للتَّواصل مع الجماهير بطريقة سطحيَّة أو شعبويَّة، بينما المُفكر العميق قد يُنظر إليه شخصًا منفصلاً عن النَّاس.

تعكس هذه الظواهر مزيجًا من الطَّبيعة البشريَّة، الَّتي تُفضّل الانجذاب للتَّسلية والسُّهولة، وفق آليات السُّوق، والاختلال في الأولويَّات الاجتماعيَّة؛ حيثُ يفضّل النَّاس من يخدعهم على من يكون صادقًا معهم.

لا تعني القوَّة النَّاعمة في جزئها الثَّقافيّ، سوى تصدير التَّفاهة ونشرها

وترويجها بين الشُّعوب، لتواجه الإنسانيَّة منزلقًا خطيرًا يُهدّد البشريَّة برُمَّتها. فعندما يحكم التَّافهون والسَّيئون وتكون بيدهم السُّلطة والقرار، فليس هناك أيُّ رادع يمنعهم من إطلاق حروب تدميريَّة، تُستخدم فيها الأسلحة غير التَّقليديَّة، القادرة على إفناء الملايين من النَّاس.

إنَّ وجود هذه الفئة من التَّافهين في مواقع السُّلطة والقرار ليس صدفة. فالجامعات، ووسائل الإعلام، والمراكز العلميَّة والثَّقافيَّة، ودور النَّشر الكُبرى، وصناعة الأفلام والمسلسلات، أصبحت تخضع كلّها لشروط المموّلين، ويُعدُّ الأشخاص بالطَّريقة الَّتي تناسبهم، لشَغل الوظائف المُوكلة إليهم، وانتهوا بذلك إلى مجرَّد وسائل وأدوات في يد هذه الفئة.

إنَّ الشَّخص الَّذي يتعلَّم ويتدرَّب كما يريد أصحاب رؤوس الأموال، لن تصب جهوده إلَّا في خدمة مُشغّليه، فلا يتمكَّن من فهم الدَّور الَّذي يقوم به، ولا يستطيع أنْ يربطَ بين تفاصيل ما يجري والعمل الذي يقوم به وأهداف الرَّأسماليّين المُرابين. وبعد أن يقضي السَّاعات الطَّويلة لأداء وظيفة مُكرَّرة بلا أفُق، يعود إلى المنزل منهكًا، لتستلمه وسائل التَّسلية التَّافهة، لتُخفّف عنه ضغوطَ العمل، أو يتابع الإعلام الَّذي ينشر الدَّجل، ويكرر بلا ملل كلامًا سطحيًّا لمن يسمُّونهم سياسيّين ومحلّلين وخُبراء.

وعلى هذا النَّحو، تستمر عمليَّة تسطيح العقول، ليُصبح الإنسان مجرَّد رقم في يد أصحاب المال، يمُكن شراؤه والتَّلاعب بتفكيره من خلال الإعلام والمؤسَّسات التَّعليمَّة والثَّقافيَّة والدّينيَّة. ولأنَّهم تافهون، فإنَّهم

يدعمون كل ما هو تافه، كي يسرقوا الإنسان من نَفسه، ويتحوَّل إلى آلة بلا تفكير. وعندهم ممنوع الاقتراب من هذه المنظومة، أو نقد مسارها؛ لأنَّ هذه الفئة المُمَوَّلة باتت تلعب دور السدنة لرأس المال، الَّذي صار إله العصر.

لم يَعد الفِكر والدّين والعِلم من أجل معرفة الحقيقة والسَّير في طريقٍ مستقيم، بل صارت كلها وسائل للحفاظ على امتيازات رأس المال. ورأس المال لا همَّ له إلَّا تعميق النَّزعات الاستهلاكيَّة لكلّ ما يُدرُّ ربحًا جديدًا، مهما كانت طبيعة هذا الشَّيء المستهلك مفيدة أو ضارة، جميلة أو قبيحة، ودون اعتبار لتداعيات ذلك على الإنسان في مِزاجه وصحته وحياته.

والقِلَّة الَّتي تملك الوعي بما يجري وتغرّد خارج السّرب، لم يَعد لها مكان بين الأغلبيَّة المنخرطة في لُعبة غيبوبة الوعي. وهي لذلك تعاني الغُربةَ الفِكريَّة والرُّوحيّة، ولكنها تقبل بدفع هذه الضَّريبة من أجل إنقاذ نفسها، وإنقاذ من يُمكن إنقاذه معها. من الممكن أن تكون هذه المرحلة هي الأقسى عليهم في التَّاريخ البشريّ.

ولا شكَّ أنَّ هناك استثناءات في الإعلام، من حيث قيمة المحتوى السّياسيّ، أو الاقتصاديّ، أو الثَّقافيّ، أو الاجتماعيّ، غير أنَّ عدم استقلاليَّة الإعلام، وارتباطه بأجندات سياسيَّة، أبعدته عن تناول الموضوعات الحقيقيَّة بالطَّريقة المناسبة للمساهمة في رفع نسبة الأميَّة الثَّقافيَّة المُخيفة داخل المجتمع.

ليست الصُّورة كلُّها مظلمة، بل إنَّ هناك بؤرًا منيرةً، تضمُّ كثيرًا من العلماء والمفكّرين والمُثقَّفين، الَّذين يملكون جرأة الطرح، وعمق التَّحليل، وموضوعيَّة النَّقد في مواجهة كمّ هائلٍ من الدَّجل الأكاديميّ، والشَّعوذة الفِكريَّة.

خَامسًا: تَطويعُ الفُنون

لم تُفلت المجالات الفنيَّة المُختلفة من نفوذ التَّافهين وسيطرتهم عليها. بل إنَّ الفُنون المختلفة باتت وكرًا للهبوط والزَّيف وانحدار الذَّوق، وباتت الأعمال الفنيَّة الرَّزينة والقويَّة والممتعة عملةً نادرةً. والسَّبب في ذلك هو بالأساس هيمنة منطق السُّوق على الأعمال الفنيَّة؛ حيث تمُرَّر الرَّسائل الَّتي تخدم النّظامَ الرَّأسماليَّ واستمراره، في ظلّ تملُّك رؤوس الأموال لوسائل الإعلام، وصناعة السّينما والدراما، وكثير من الفنون الأخرى، واستحواذهم على سوق الإعلانات.

إنَّ الفنَّ صورةٌ ومضمون. فهناك الفكرة، وهناك الصورة الفنيّة الَّذي يُقدّمها، سواء أكان لوحة أم صورة أم فيلمًا أم قصيدةً أم روايةً أم أُنشودةً، أو غير ذلك. وقد استطاع الغرب وأمريكا، بشكلٍ خاص، الوصول إلى إتقان الصُّور الفنيَّة بشكل هائل، لكنَّ المضمون إمَّا أنَّه تافه أو أنَّه رديء، ونادرًا ما نجد أعمالاً فنيَّة ممتلئة ورفيعة. ورغم رداءة المضامين الفنيَّة غالبًا، لكن من الضَّروريّ الإفادة من الصُّورة الفنيَّة، فنحن نجد لديهم

أكثر، الأفلام والرّوايات والقصائد واللوحات والأغاني، إتقانًا من النَّاحية الفنيَّة والصُّوريَّة.

تستخدم الرَّأسماليَّة الفنونَ أدوات للسَّيطرة على الشُّعوب، وهي جزءٌ لا غنى عنه من الحرب النَّاعمة، الَّتي تُشنُّ ضدَّ الأمم المُناهضة للثَّقافة الغربيَّة بغية إخضاعها. ومضامين هذه الفنون هي الَّتي تحتاج مقاومةً، وبدائلَ منسجمة مع القِيَم الإنسانيَّة الرَّفيعة. إنَّنا نُعايش حكمًا أقليًّا «أوليغارشيَّة»، وطبقة بلوتوقراطية (Plutocracy) ثريَّة تحكُم، ولسنا أبدًا أمام نظام ديمقراطيّ حقيقيّ؛ ذلك أنَّ الرَّأسماليَّة والدّيمقراطيَّة شيئان لا يلتقيان، فالأولى حاكمة على أيّ نظام سياسيّ مهما كانت صورته.

لا تستوعب الرَّأسماليَّة المصالحَ والتَّوجُّهات المُختلفة، فهي مصمَّمة من أجل خدمة طبقة بعينها، هي الطَّبقة الرَّأسماليَّة، وما جاورها من فئات أرستقراطيَّة. ومن المُتوقَّع، بسبب ذلك، أنْ تتضخمَ أدوار الشَّركات العالميَّة والمنظَّمات غير الحكوميَّة، الَّتي تنهب موراد دول الجنوب وثرواته، من خلال توظيف مصطلحاتٍ فضفاضة مثل الحوكمة، الَّتي تحيل إلى مجموعة من القوانين والقواعد والضوابط المنظّمة للعلاقات بين أصحاب المصالح، وتُحقّق مجموعة من المبادئ مثل: العدل والشَّفافية والمساواة. ولكنَّها في الواقع شيء آخر؛ حيثُ إنَّ ذلك انتهى إلى تجريد الحكومات والبرلمانات المُنتخبة من سلطاتها، لتُصبح مجرَّد غطاء وواجهة لأصحاب رؤوس الأموال التَّافهين، الَّذين يسودون العالم.

تُعدُّ صناعة السّينما والمحتوى الاجتماعيّ والمضمون الإعلاميّ، جزءًا من الصّناعة الفنيَّة الَّتي يُتقنها الأمريكيُّون والغربيُّون، والَّتي تُستخدم لتكريس الهيمنة الأمريكيَّة والغربيَّة. فهي تحمل مضامين مدمّرة نفسيًّا واجتماعيًّا، كما هي القصص التَّافهة والأخبار الزَّائفة وأفلام العُنف والإباحيَّة مثلاً. تُعدُّ هذه الأفلام جزءًا من أساليب الحرب النَّاعمة؛ حيثُ تُستخدم لتقويض النَّسيج الاجتماعي والخُلُقيّ للمجتمعات، خاصَّة تلك الَّتي تُقاوم الهيمنة الثَّقافيَّة الخارجيَّة. هذه الأفلام، بمحتواها الصَّريح، تُسهم في نشر الفوضى النَّفسيَّة والاجتماعيَّة، ممَّا يجعلها سلاحًا فعَّالاً في تدمير القِيَم التَّقليديَّة.

وهذا الطراز الهابط من الثَّقافة، يستخدم أداة لجذب الآخرين والتَّأثير فيهم بطرق خفيَّة. ففي سِياق أفلام العُنف والإباحيَّة، يمكن تفسير هذا التَّأثير على أنَّه محاولةٌ لتطبيع السُّلوكيَّات العدوانيَّة، والانحرافات الجِنسيَّة، ممَّا يُضعف الرَّوابط الأُسريَّة والاجتماعيَّة. فالترَّفيه المُفرط، بما في ذلك المحتوى العنيف والجنسي، يُحوّل المجتمعات إلى كيانات سلبيَّة، غير قادرة على التَّفكير النَّقدي أو المقاومة[1].

يتجاوز تأثير هذه الأفلام الترَّفيه وحده، ليُصبح أداةً نفسيَّة تُغير تصوُّرات

١ - بوستمان، نيل: اللهو حتى الموت (الخطاب العام في عصر الأعمال الترفيهية)، ص٢٠-٢٥-٦٠-٨٠.

الأفراد. ففي دراسة أجراها الباحث (براد بوشمان -Brad J. Bushman) من جامعة ولاية أوهايو، ونُشرت في مجلة "علم نفس ثقافة الإعلام الشعبيّ" تأكيد على أنَّ "التَّعرُّض المستمر لمشاهد العُنف في الأفلام، يزيد من السُّلوك العدوانيّ، ويُقلّل من التَّعاطف لدى المشاهدين". وهذا التَّغيير السُّلوكيُّ يُسهم في تفكُّك التَّماسك الاجتماعيّ، ممَّا يتماشى مع أهداف الحرب النَّاعمة في إضعاف المجتمعات من الدَّاخل.

من جهة أُخرى، يرى الباحثون أنَّ الإباحيَّة تُستخدم باعتبارها سلاحًا لتدمير القِيَم االخُلُقيَّة. في كتابها "عالم المواد الإباحيَّة: كيف اختطفت المواد الإباحيَّة حياتنا الجنسيَّة"، تؤكّد (جايل داينيز -Gail Dines) أنَّ "الإباحيَّة لا تُروّج فقط للجنس باعتباره سلعة، بل تُعيد نسج العلاقات الإنسانيَّة بطريقة تجعلها سطحيَّة وماديَّة، ممَّا يُضعف المؤسَّسات الأُسريَّة"[1]. يُصبح هذا التَّأثير أكثرَ خطورة عندما يستهدف الشَّباب، الَّذين يجسّدون العمود الفِقريَّ لأيّ مجتمع؛ حيثُ تُظهر الدّراسات أنَّ التَّعرُّض المبكّرَ للإباحيَّة، يرتبط بارتفاع معدَّلات العُنف الجنسيّ والإدمان.

ويربط الباحث البريطانيُّ (روجر سكروتون -Roger Scruton) (١٩٤٤-٢٠٢٠)، في مقاله "الانحلال الخُلُقيُّ في الغرب" (٢٠١٤)،

---

١ - جايل داينيز: عالم المواد الإباحية (كيف اختطفت المواد الإباحية حياتنا الجنسية)، ص٥٠-٥٤.

بين انتشار الإباحيَّة والعنف في الثَّقافة الشَّعبيَّة، وبين محاولات متعمَّدة لتفكيك القِيَم التَّقليديَّة، الَّتي تحمي المجتمعات من الانهيار. وهو يرى أنَّ هذا الانتشار ليس عفويًّا، بل هو جزءٌ من استراتيجيَّة تهدف إلى إضعاف الإرادة الجماعيَّة للشُّعوب، وجعلها أكثر قابليَّة للسَّيطرة.

ويعني هذا كلُّه، وجود وعي لدى النُّخب الغربيَّة والأمريكيَّة، عن خطورة ترويج الثَّقافة الإباحيَّة والعنيفة من خلال السّينما والرّياضة. فرغم أنَّ الغربَ يستخدمها لمحاربة المجتمعات الأُخرى من أجل تفكيك بناها التَّقليديَّة، والملتزمة بالضوابط الخُلُقيَّة، لكنَّها ترتدُّ آثارها داخليًّا، وتُسهم في تفكُّك المجتمعات الغربيَّة، وانتشار الجريمة والإرهاب فيه، وارتفاع معدَّلات الاغتصاب، والأبناء غير الشَّرعيّين.

سَادسًا: الحَربُ النَّفسيَّة

تمُثّل الحرب النَّفسيَّة جزءًا من الحرب النَّاعمة. فهي لا تتضمَّن الإكراه، بل الخداع الَّذي يجعل الطَّرف المقابل مقتنعًا بشيء، هو في الحقيقة مجرَّد وهم لا واقع له. وهي لذلك أحد أخطر أنواع الحروب، الَّتي استُخدمت عبر التَّاريخ للتَّأثير على وعي النَّاس وسلوكيَّات الأفراد والمجتمعات، بهدف تحقيق مكاسب سياسيَّة أو عسكريَّة أو اقتصاديَّة، دون الحاجة إلى صِدام. فالقوَّة النَّاعمة رغم أنَّها مصطلح جديد، لكنَّ كثيراً من مصاديقها كانت موجودة في مراحلَ تاريخيَّة متعدّدة.

يَستخدم هذا النَّوع من الحروب، الأساليب النَّفسيَّة للتَّأثير على العدوّ، وإضعاف معنويَّاته وزرع الشكّ والخوف في صفوفه، ممَّا يؤدّي إلى انهياره، أو فقدانه القدرة على المُقاومة. وأهمية الحرب النَّفسيَّة وأثرها على المجتمعات، اختصرها (سون أتزو) بقوله: "فن الحرب يعني إخضاع العدو دون قتال هو قمَّة المهارة"[١]، فالانتصار الأفضل ليس في المعارك الدمويَّة، بل في تحقيق الهدف دون إراقة دماء، عبر الخِداع، والدبلوماسيَّة، والحرب النَّفسيَّة. وهذا ما يتماشى مع فلسفته العامَّة، بأنَّ الحرب ليست مجرَّد صراع عسكريّ، بل فنٌ استراتيجيّ، يتطلَّب الذَّكاء والمكرَ.

والحرب النَّفسيَّة على هذا النَّحو، نوع من الحروب غير التَّقليديَّة، الَّتي تستهدف العقول بدلاً من الأجساد، وتستخدم التَّأثير النَّفسيَّ والعاطفيَّ لإضعاف العدوّ، أو التَّحكُّم في سلوك الأفراد. وقد عرَّفها (ماوتسي تونغ -Mao Zedong)، الزَّعيم الصّيني، بأنَّها "فن التَّأثير على معنويَّات العدوّ، عبر وسائل غير قتاليَّة لتحقيق الانتصار دون خوض معركة مباشرة"[٢]. وتعتمد الحرب النَّفسيَّة على استخدام وسائل الإعلام، والدّعاية، والشَّائعات، والتّقنيات الحديثة، لإيصال رسائل مؤثّرة، تستهدف تغيير قناعات الأفراد والمُجتمعات.

---

١ - سون أتزو: فن الحرب، ص٨٩.

٢ - ماو تسي تونغ: في الحرب الطويلة الأمد، ص٥٠-٦٠.

تتعدَّد أساليب ووسائل الحرب النَّفسيَّة، ومن أبرزها التَّضليل الإعلاميُّ، الَّذي يُعد أحد الأدوات الرئيسة في الحرب النَّفسيَّة؛ حيثُ تُستخدم الأخبار الكاذبة، أو المُضلّلة لخداع العدوّ، أو الجمهور المستهدف.

فـ «التَّحكُّم في الإعلام يعني التحكم في العقول»، كما يقول (نعوم تشومسكي)[1]. فمثلاً، خلال الحرب الباردة، استخدمت الولايات المتَّحدة، والاتحاد السوفيتي وسائل الإعلام لبثّ الدّعاية المناهضة للطَّرف الآخر، ممَّا أثَّر على الرأي العام في كِلا الجانبين.

والإعلام نفسه، قد يكون مصدرًا لبثّ الشَّائعات والدّعايَة السوداء. ومن خلاله تُنشر معلومات مغلوطة لتشويه صورة العدوّ، أو زرع الفتن والشُّكوك داخله. فمثلاً، استخدمت بريطانيا، خلال الحرب العالميَّة الثَّانية، الدّعاية السَّوداء لإيهام الجنود الألمان بأنَّ بلادهم تخسر الحرب، ممَّا أدَّى إلى ضعف معنويَّاتهم.

ومع التَّطوُّر التّكنولوجيّ، أصبحت الحرب النَّفسيَّة تمُارَس عبر الإنترنت، ومنصات التَّواصُل الاجتماعيّ. يُستخدم الذَّكاء الاصطناعيُّ، و»البوتات» (Internet Bot)، وحملات الأخبار المزيَّفة للتَّأثير على الانتخابات، أو خلق انقسامات داخل المجتمعات. وقد وُجّهت، مثلاً،

1 - Noam Chomsky: Media Control (The Spectacular Achievements of Propaganda), p15- 55.

اتهامات لروسيا باستخدام الحرب المعلوماتيَّة للتَّأثير على الانتخابات الأمريكيَّة عام ٢٠١٦.

تعتمد الحرب النَّفسيَّة على استغلال المشاعر الإنسانيَّة، مثل الخوف والغضب، لدفع الأفراد إلى اتخاذ قرارات غير عقلانيَّة. وتستخدم هذه الآليَّة في الحروب، عبر بثّ صور مؤلمة لضحايا النّزاعات، أو تصوير الأعداء على أنَّهم مجرمون بلا إنسانيَّة.

كما تُستخدم في الحرب النَّفسيَّة، آليَّة زرع الانقسامات، وإحداث الفوضى، من خلال بثّ الفتن والخلافات داخل المجتمع المُستهدَف، سواء الطَّائفيَّة، أو العرقيَّة، أو الأيديولوجيَّة. وبذلك يجري إضعاف الوحدة الوطنيَّة والدينيَّة، ممَّا يُسَّهل السَّيطرة عليها. ومن أمثلة ذلك، استغلال الاختلافات المذهبيَّة بين السُّنَّة والشّيعة في المنطقة العربيَّة، لخلق الصّراعات الدّينيَّة أو السّياسيَّة، وإضعاف المجتمعات المُستهدَفة.

والحربُ النَّفسيَّة تُريد تحقيق عدَّة أهداف استراتيجيَّة، منها إضعاف العدوّ دون قتال، كما قال (صن تزو -Sun Tzu)، الَّذي اعتبر أنَّ أفضل انتصار هو الَّذي يتحقَّق دون قتال. والحرب النَّفسيَّة تُضعف العدوَّ وتجعله غير قادر على المواجهة العسكريَّة الفعَّالة.

وهي أيضًا قد تُستخدم في الدّعاية والتَّضليل الإعلاميّ، لتغيير موقف الشُّعوب تجاه قضايا مُعيَّنة، مثل إقناع النَّاس بعدم جدوى المقاومة، رغم أنَّها حقٌ للدّفاع عن النَّفس والأرض والقِيَم، أو تبرير الحروب

والسّياسَات العدوانيَّة. بل إنَّ أحدَ أهداف الحرب النَّاعمة تشويهُ سُمعة العدوّ، وجعله يبدو غير جدير بالثّقة أو غير إنسانيّ، ممَّا يُقلّل من دعمه الدَّاخليّ والخارجيّ. والدُّول الكُبرى، تريد بذلك تقوية هيمنتها السّياسيَّة والاقتصاديَّة، ومد نفوذها في العالم، سواء عبر الإعلام، أو الشَّركات العملاقة، أو وسائل التَّأثير الثَّقافيّ.

تترك الحربَّ النَّفسيَّة تأثيراتها العميقة على الأفراد والمجتمعات، ومن أبرزها الإحباط والاستسلام عندما يتعرَّض الأفراد لحملة نفسيَّة مستمرة، يشعرون معها بالعجز واليأس، ممَّا يؤدّي إلى فقدانهم الرَّغبة في المُقاومة أو التَّغيير. ويمُكن لهذا النَّوع من الحروب، أنْ يؤدّيَ إلى انقسامات داخل المجتمع، سواء أكانت دينيَّة أم عرقيَّة أم سياسيَّة، ممَّا يجعله أكثر ضعفًا أمام التَّحديَّات. وإذا جرى استخدام الحرب النَّفسيَّة لضرب مصداقيَّة الحكومات أو المؤسَّسات، يمُكن أن يفقد النَّاس ثقتهم بها، ممَّا يؤدّي إلى اضطرابات سياسيَّة واجتماعيَّة. وفي بعض الحالات، قد تؤدّي الحرب النَّفسيَّة إلى ردود فعل عنيفة من الأفراد أو الجماعات، ممَّا يزيد من التَّطرُّف، أو ينتج حالةً من التَّمرُّد والثورة ضدَّ الحكومات.

ومن الأمثلة التَّاريخيَّة على الحرب النَّفسيَّة الحرب الباردة؛ حيثُ استخدمت الولايات المتَّحدة والاتحاد السوفييتي الدّعاية والإعلام والتَّجسس، للتَّأثير على معنويَّات الطَّرف الآخر. وخلال الحرب العالميَّة الثَّانية، استخدم (جوزيف غوبلز -Joseph Goebbels)، وزير الدّعاية

النَّازيّ، أساليب نفسيَّة متقدّمة لترسيخ الأفكار النَّازيَّة في أذهان الألمان. وفي حرب العراق، استخدمت الولايات المتَّحدة وسائل الإعلام لتبرير غزو العراق عام ٢٠٠٣، من خلال الادّعاء بوجود أسلحة دمار شامل، وهو ما تبيَّن لاحقًا عدم صحته.

ولمواجهة الحرب النَّفسيَّة، لا مفرَّ من تعميق الوعي السّياسيّ، ودعم الإعلام المُستقل، من أجل كسب ثقة النَّاس، ومواجهة خطر الأخبار الكاذبة والتَّلاعُب الإعلاميّ. والمؤسَّسات الإعلاميَّة الوطنيَّة، تحتاج بدورها إلى تعزيز الشَّفافية والمصداقيَّة لديها، من أجل ربط النَّاس بها، والوثوق بما تقول. ومن ناحية أخرى من المهمّ تعليم التَّفكير النَّقديّ للطَّلبة وعموم النَّاس، من أجل خلق قدرة تحليليَّة للمعلومات لدى الأفراد، قبل تصديقها.

لم تَعد الحربُ النَّفسيَّة مجرَّد أداةٍ من أدوات الحروب، بل صارت جزءًا من الحياة اليوميَّة من خلال الإعلام والتّكنولوجيا الحديثة. ووعي الأفراد والمجتمعات بآليَّاتها وأساليبها، هو ما يُجنّبهم الوقوع ضحيَّة لهذه الحروب غير المرئيَّة، ولكن ذات التَّأثير العميق. فالقوَّة الحقيقيَّة ليست في السَّيطرة على الأجساد، بل في السَّيطرة على العقول.

سَابِعًا: الحَربُ السّيبرانيَّة (Cyberwarfare)

تَبرز الحرب السّيبرانية، بما هي أحد أوجه الحرب النَّاعمة في عصرٍ

يتسارع فيه التَّقدُّم التّكنولوجيُّ، ليتحوَّل الاختراق الرقميُّ إلى سلاح خفيّ، يستهدف المجتمعات والدول، دون الحاجة إلى مواجهة عسكريَّة تقليديَّة. تتجاوز هذه الحرب حدود الشَّبكات والأنظمة، لتصلَ إلى العقول والقِيَم، ممَّا يجعلها أداة فعالة للتَّأثير والسَّيطرة على الناس. وباستخدام التَّكنولوجيا، تُصبح البيانات، والمعلومات، وحتَّى السلوكيَّات اليوميَّة هدفًا للاختراق، وهو ما يتماشى مع تعريف الحرب النَّاعمة، بوصفها قوَّة الجذب والإقناع.

وتتضمَّن الحرب السّيبرانيَة هجمات رقميَّة، مثل اختراق الأنظمة الحكومية، ونشر الفيروسات، والتَّلاعُب بالبيانات، لكنَّ تأثيرها النَّاعم، يكمن في قدرتها على تغيير التَّصوُّرات، وإضعاف الثّقة الاجتماعيَّة. وحسب (جوزيف ناي)، في كتابه «القوَّة النَّاعمة» فإنَّ «القوَّة النَّاعمة في العصر الرَّقميّ تتجاوز الثقافة لتشمل السَّيطرة على المعلومات»[1]، والهجمات السّيبرانيَّة تمُثّل أداة للتَّأثير غير المباشر؛ حيثُ تُستخدم لنشر الخوف أو الفوضى دون إطلاق رَصاصة. وهذه الرُّؤية، تُبرز كيف تتحوَّل التّكنولوجيا إلى سلاح ناعم يُهدد الاستقرار الدَّاخليَّ.

وقد حذَّر (مارتن هيدغر) منذ سنة ١٩٥٤، في مقال له بعنوان «سؤال التّكنولوجيا» من أنَّ التّكنولوجيا ليست مجرَّد أداة مُحايدة، بل هي قوَّة

١ - جوزيف ناي: القوة الناعمة، ص٦٠-٨٠.

تُعيد تشكيل الوجود البشريّ، وأنَّ «التّكنولوجيا تُحوّل الإنسان إلى مورد يُستغل»، وهو ما ينطبق على الحرب السّيبرانيَّة، الَّتي تستهدف استغلال البيانات الشَّخصيَّة للتَّلاعُب بالأفراد والمجتمعات. في سِياق الحرب النَّاعمة، يُصبح الاختراق الرقميُّ وسيلةً للسيطرة على العقل، ممَّا يتماشى مع مخاوف (هايدغر) من فقدان الإنسان لسيادته.

ومن جهة أخرى، يرى (ميشيل فوكو)، في أعماله حول السُّلطة مثل «المراقبة والعقاب»، أنَّ «المعرفة قوَّة»، والسَّيطرة على المعلومات تمُثّل أداةً للهيمنة. في الحرب السّيبرانيَّة. يُصبح اختراق البيانات، أو نشر الأخبار المُزيَّفة صورة من صور «السُّلطة النَّاعمة»، الَّتي تُكوّن الوعي الجماعيَّ. يُبرز (فوكو) في هذا العمل، كيف يمكن للتّكنولوجيا أن تُستخدم لفرض الانضباط الاجتماعيّ عن بُعد، ممَّا يجعلها أداة مِثاليَّة للحرب النَّاعمة.

ومن ناحية التَّأثير الاجتماعي والخُلُقيّ، حذَّر المفكر الكندي (مارشال ماكلوهان -Marshall McLuhan)، في كتابه عن "فهم وسائل الإعلام"، من أنَّ "الوسيلة هي الرّسالة"[1]، مشيرًا إلى أنَّ التّكنولوجيا نفسها تُغيّر طبيعة المجتمعات مع غضّ النَّظر عن المُحتوى. وفي سياق الحرب السّيبرانيَّة، فإنَّ الاعتماد المُفرط على

١ - مارشال ماكلوهان: فهم وسائل الإعلام، ص٧-٨.

الشَّبكات الرَّقميَّة يجعل المجتمعات عرضةً للاختراق، ليس فقط تقنيًا، بل ثقافيًّا ونفسيًّا؛ حيث يُصبح الأفراد أكثر قابليَّة للتَّوجيه عبر المعلومات المُسيطر عليها. هذا التأثير يُعزّز من فعاليَّة الحرب النَّاعمة في تفكيك الهُويَّات.

ولعلَّ أحداث مثل اختراق ويكيليكس (WikiLeaks)، أو التَّدخُّل الرُّوسي المزعوم في انتخابات ٢٠١٦ الأمريكيَّة تُظهر كيف يمكن للحرب السّيبرانيَّة أن تُستخدم باعتبارها جزءًا من الحرب النَّاعمة. إنَّ هذه الهجمات لم تُدمّر بِنى تحتيَّة فقط، بل أضعفت الثِّقة بالمؤسَّسات، وأثَّرت على الرَّأي العام. وهي كذلك، تُبرز هجمات الفِدية الرَّقميَّة، وكيف يُمكن للاختراق أن يَشُل اقتصادات بأكملها، ممَّا يؤكد الارتباطَ بين التّكنولوجيا، والتَّأثير غير العسكريّ.

وباختصار، تمُثّل الحرب السّيبرانيَّة، باختراقها الرَّقميّ والتّكنولوجي، امتدادًا حيًّا للحرب النَّاعمة؛ حيثُ تتجاوز الضَّرر الماديَّ لتستهدف العقول والقِيَم. وإذا كان (هايدغر) يحذّر من هيمنة التّكنولوجيا، ويربطها (فوكو) بالسُّلطة، فإنَّ (ماكلوهان) يرى فيها تغييرًا للمجتمعات، بينما يُشخّص (باومان) هشاشتها. وهذه الآراء تُظهر أنَّ الحرب السّيبرانيَّة ليست مجرَّد تهديد تِقني، بل أداة فلسفيَّة، وسياسيَّة تُعيد تصميم العالم وهيكلته بطرقٍ خفيَّة ومدمّرة، ممَّا يستدعي استراتيجيَّات دفاعيَّة تجمع بين الأمن الرَّقميّ، والوعي الثَّقافيّ.

● المَبحثُ الثَّالثُ: الحَربُ الاجتماعيَّةُ

من الأسلحة النَّاعمة، الَّتي تستخدمها القُوى المهيمنة، أسلحة المُخدّرات، والإرهاب، والمِثليَّة، وما يشبهها. وهي أسلحة فتَّاكة تستهدف تماسك الأُسرة، وتلاحم المجتمع، وتعمل على تفكيكه، وتحويل الشُّعوب المُستهدفة إلى حطام بشريّ يَسهل التَّحكُّم فيه واستخدامه. ومن المُهمّ الإشارة إلى أنَّ هذه الأسلحة الَّتي تستخدمها الولايات المتَّحدة، وكثيرٌ من دول أوروبَّا، من أجل تفكيك المجتمعات الأخرى، لم تستثنِ المُجتمعات الغربيَّة نفسها. فالفئات الحاكمة ليست مهتمَّة بالنَّاس، حتَّى وإن كانوا رعايا للدَّولة الَّتي يحكمونها.

أوَّلًا: سلاح المُخدّرات

تستخدم القُوى المُهيمنة المخدّرات سلاحًا فتَّاكًا لتقويض المجتمعات المُستهدفة، وإضعافها والسَّيطرة عليها دون حاجة لاستخدام القوَّة الصُّلبة، حتَّى باتت المخدرات اليوم شائعةً بكثرة بين النَّاس، وهي لا تقتصر على فئة الشَّباب، بل تشمل الكثيرَ ممَّن تجاوز هذه المرحلة.

وقد أشار الباحث الأمريكيُّ (ألفريد ماكوي -Alfred W. McCoy)، إلى أنَّ "الاستخبارات الغربيَّة دعمت تاريخيًّا تجارة المخدّرات لزعزعة استقرار المجتمعات المعادية"[1]، مماَّ يوحي بأنَّ الكتابات الأكاديميَّة

1 - Alfred W. McCoy: The Politics of Heroin (CIA Complicity in the Global Drug Trade), p132.

حول هذا الموضوع قد تُوظَّف لتجميل هذه السّياسات أو تبريرها. هذا الارتباط بين الجهات الغامضة، والخطاب الفكريّ يُثير تساؤلات حول مدى استقلاليَّة بعض الباحثين.

تُظهر الدراسات، أنَّ المخدّرات تُستخدَم أداة للسَّيطرة والهيمنة، وهو ما أكَّدته دراسةٌ نُشرت في مجلَّة «المخدّرات الرَّقميَّة بوصفها أسلوبًا جديدًا للهيمنة» (٢٠٢٤)؛ حيثُ أشارت إلى أنَّ «استخدام وسائل التَّواصُل الاجتماعيّ لتسويق المُخدّرات الرَّقميَّة يُسبّب الهلوسة وفقدان التَّوازن النَّفسيّ والجسديّ، ممَّا يتطلَّب استراتيجيَّات توعية لمواجهة هذه الظَّاهرة». وهذا النَّوع من الهيمنة، لا يقتصر على المخدّرات التَّقليديَّة مثل الحشيش أو الهيروين، بل يمتدُّ إلى أنواع جديدة مثل الشبو (Shabu) أو الكريستال ميث (Methamphetamine)، الَّذي وصف بأنَّه "مخدر يحمل عبارة: العقل لا يُستبدل ولا يُسترد بعد الاستخدام"، نظرًا لتأثيره المُدمّر على العقل والسُّلوك.

ومن النَّاحية التَّاريخيَّة، ارتبط ترويج المخدّرات بالصّراعات السّياسيَّة والاقتصاديَّة. فعلى سبيل المثال، أشارت تقارير "الإنسانيَّة الجديدة" (٢٠١٤) إلى تحوُّل دول غرب إفريقيا، مثل غينيا بيساو، إلى ممرَّات لتهريب المخدّرات نحو أوروبَّا، وهو ما يُظهر كيف تُستخدَم هذه التجارة أداةً لزعزعة الاستقرار الإقليميّ.

وهذه العمليَّات غالبًا، ما تُدار من قِبل شبكات منظَّمة، بدعم من

جهات خارجيَّة تسعى لإضعاف خصومها. في الشَّرق الأوسط، أشار مركز "المستقبل" إلى أنَّ "مكافحة المخدرات لم تعد قضيَّةً أمنيَّةً بحتة، بل اكتسبت أبعادًا سياسيَّة متصاعدة، بسبب السّياقات الإقليميَّة والضغوط الدوليَّة".

لا يقتصر تأثير المُخدّرات على الصّحة الفرديَّة، بل يمتدُّ إلى تفكيك الأسر، وزيادة معدلات الجريمة. ووفقًا لتقرير الأمم المتَّحدة حول الاتجار بالبشر (٢٠١٦)، فإنَّ "تزايد الاتجار بالمخدّرات عالميًّا يُعرّض الفئات الضعيفة، خاصَّة الأطفال والشباب، للاستغلال". هذا الواقع يجعل من ترويج المخدرات سلاحًا فعَّالاً في الحرب النَّاعمة؛ حيثُ يُدمّر الروابط الاجتماعيَّة، ويُضعف القدرة على المقاومة الثَّقافيَّة والاقتصاديَّة. وفي المقابل، تتطلَّب مواجهة هذا التَّهديد استراتيجيَّات شاملة، مثل ضرورة تجاوز النَّهج العسكريّ في "الحرب على المخدّرات"، نحو سياسات تركّز على التَّنمية والإصلاح الاجتماعيّ.

تحتاج الحرب على المخدّرات وعيًا سياسيًّا واجتماعيًّا بمخاطرها. وفي ظلّ مجتمعات يعاني فيها الشَّباب، خاصَّة، الفقر والبؤس والجهل والحرمان، من غير المرجَّح النَّجاح في القضاء على مشكلة الإدمان. وهذا يعني أنَّ الجهود ينبغي أن تأخذ مسارين متوازيين: الأوَّل يتعلَّق بالتَّوعية حول مخاطر المخدّرات على العقل والصَّحة والأسرة والعلاقات الاجتماعية والمال، والثَّاني يتعلَّق بالاهتمام بظروف الشَّباب، وانتشالهم

من الفقر والبؤس والحرمان، وبشكل أساسيّ من الجهل والتصحر الديني؛ حيثُ يعيش المدمنون عادةً بعيدًا عن القِيَم الدّينيَّة قبل أن يقعوا في فخّ الإدمان.

ثَانيًا: وَرقَةُ الإرهَاب والحَرب بالوكالَة

بات معلومًا، أنَّ الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة هي الَّتي صنعت الحركات التَّكفيريَّة، والجماعات الإرهابيَّة، وهي الَّتي موَّلتها ودرَّبتها، كما اعترف الرَّئيس الأمريكيُّ (دونالد ترامب -Donald Trump)، ووزيرة الخارجيَّة السَّابقة (هيلاري كلينتون -Hillary Clinton) في تصريحاتٍ مسجَّلة.

وقد كشف تقرير وَزارة دائرة الكفاءة الحكوميَّة (DOGE)، برئاسة (إيلون ماسك -Elon Musk)، نُشر جزءٌ منه في جلسةِ استماع في الكونغرس، أنَّ الوكالة الأمريكيَّة للتَّنمية الدَّوليَّة (USAID) كانت تُرسل سنويًّا ٧٠٠ مليون إلى إرهابيّي داعش، وبوكو حرام، والقاعدة، وطالبان ومنهم)أسامة بن لادن).

ليس الإرهاب سوى ابن شرعيّ للتَّفاهة والرَّداءة والهبوط. ولأنَّ كوارث النّظام الرَّأسماليّ وجنونه لَم يظهر بعد من يقدر على كبحها وإيقافها، فإنَّ المخاطر ستبقى قائمةً، ومآزق العالم ستتوسَّع. تُبدع الولايات المتَّحدة في صناعة الإرهاب، وافتعال الحروب. وهذا يمُثّل نتيجة لطبيعة الطبقة السّياسيَّة الَّتي تحكمُها.

والإرهاب هو حرب بالوكالة تشنها الولايات المتَّحدة ضد أعدائها وخصومها في العالم. وهو استراتيجيَّة تهدف إلى اختراق المجتمعات الإسلاميَّة، وتفكيكها، ونشر الطائفيَّة فيها، ضمن إطار أوسع لدعم هيمنتها الجيوسياسيَّة. وهذه السياسة، الَّتي تشير كلُّ الدَّلائل إلى أنَّها مقصودة، ضربت الاستقرار الإقليميَّ، وعمَّقت الانقسامات الدَّاخليَّة في العالم الإسلاميّ.

ويؤكد (نعوم تشومسكي) استخدام الولايات المتحدة ورقة الإرهاب، من أجل تحقيق أهدافها في الشَّرق الأوسط، من خلال دعم جماعات الدَّم المتطرّفة في سياق الحرب الباردة. ويذكر (تشومسكي) أنَّ دعم "المجاهدين الأفغان" ضدَّ السوفيت في الثمانينيَّات، بتمويل أمريكيّ وسعوديّ، أنتج تنظيمات مثل القاعدة، الَّتي تحوَّلت لاحقًا، إلى تهديدٍ عالميّ. وهذا الدَّعم، وفقًا له، لم يكن مجرَّد خطأ تكتيكيّ، بل جزء من استراتيجيَّة لإضعاف خصوم جيوسياسيّين، ممَّا أدَّى إلى تفكُّك اجتماعيّ في مناطق مثل أفغانستان وباكستان[1].

ومن أجل التَّغطية على حقيقة دعمها للإرهاب ورعايته بالمال والسّلاح والتَّدريب، تُهاجم الولايات المتَّحدة بعض الإرهابيّين الَّذين رعتهم،

١ - نعوم تشومسكي وجيلبرت أشقار: القوة الخطرة (الشرق الأوسط والسياسة الخارجية الأمريكية)، ص٧٥.

كلَّما انتهت الحاجة إليهم، أو كلَّما حاول بعضهم الخروج عن طاعتها. وفي أحيان أخرى تتم مهاجمة الحركات والمنظَّمات، الَّتي تقاوم النفوذ الأمريكيَّ وتصفها بالإرهاب. أسهم هذا الأمر في تأجيج الصّراعات والنّزاعات، كما يقول (مايكل بويل -Michael Powell) [1]، الَّذي يؤكّد أنَّ تلك الهجمات، الَّتي تُصوَّر باعتبارها جهودًا لمكافحة الإرهاب، أثارت النَّاس وحرَّكت أكثر النَّزعات الطائفيَّة وخدمت نتيجة لذلك أجندات تفكيك المجتمعات.

كان الإرهاب -ولا يزال- ورقة أمريكا الرَّابحة في مخططاتها لإعادة تشكيل الشَّرق الأوسط. وقد دعمت على مدى قُرابة عقدين من الزَّمن الجماعات المُتطرّفة مثل داعش والنُّصرة، وأوصلت بعضهم إلى السُّلطة كما حدث لزعيم "النصرة"، المنشق عن تنظيم الدولة "داعش"؛ حيث ويأتي دعم تلك الجماعات في مهاجمة الشّيعة والعَلويّين، وارتكاب المجازر ضدَّهم في سياق تأجيج المشاعر الطَّائفيَّة، وتفكيك البِنى الاجتماعيَّة.

لا شكَّ أنَّ الإرهاب حربٌ بالوكالة، تخوضها القوى المهيمنة ضدَّ شعوب المنطقة العربيَّة والإسلاميَّة، لكنَّ النّقاش يحضر حول مدى جديَّة

1 - Michael J. Boyle, «The Costs and Consequences of Drone Warfare,» International Affairs, Volume 89, Issue 1, January 2013, pages 1–29.

اعتباره جزءًا من الحرب النَّاعمة. إنَّ الإرهاب عندما يُستخدم للتَّأثير على العقول، وتسطيح الوعي، والدَّعوة إلى تبنّي أفكار ومعتقدات سلفيَّة متطرّفة، وصولاً إلى تفكيك الأُسر والمجتمعات وحتى الدول، يُصبح بشكل واضح جزءًا من الحرب النَّاعمة. فهناك زاويتان في مقاربة الإرهاب؛ الأولى باعتباره عملاً عسكريًّا يستهدف المدنيّين، والجيوش النظاميَّة بالأسلحة المتنوعة، والثَّاني باعتباره أفكارًا ومعتقدات يسعى أصحابها لنشرها بمختلف الوسائل. إنَّ الإرهاب يُصبح أداةً ناعمةً عندما يُستخدم لتشويه صورة الإسلام، وإثارة الصّراعات الدَّاخليَّة بين المسلمين، وتعميق الانقسامات المذهبيَّة والطَّائفيَّة.

وبهذا المعنى، قد يَجمع الإرهاب بين الحرب بالوكالة والحرب النَّاعمة، عندما تُوظّفه القُوى الخارجيَّة المهيمنة لتنفيذ عمليَّات عنيفة، سواء في الدُّول العربيَّة، أو في الدول الأوروبيَّة والغربيَّة. بل إنَّ تداعياته النَّفسيَّة والثَّقافيَّة على المجتمعات حربٌ ناعمة.

يضع الغرب الإساءةَ للإسلام وتشويهَه في سُلَّم أولويَّاته. وهو يحرص على خلق صورةٍ له، تجعل منه مشكلةً عالميَّة، وخطرًا على السَّلام العالميّ؛ فعندما يصنع إرهابيّين، ويخلق حركات تدَّعي الإسلام، مثل تنظيمات "القاعدة" و"داعش" و"بوكو حرام"، ثمَّ يقوم بتوجيههم نحو ذبح المدنيّين وتفجير أنفسهم وارتكاب الفظائع، فإنَّه بذلك ينجح في تسويق صورة بشعة عن الإسلام، ويُصبح هذا الدّين مرتبطًا بالإرهاب والعنف في وعي

النَّاس. ولا يتوقَّف الأمر عند هذا الحد، بل يستغل سلوك هذه المنظَّمات لتحويلها إلى ذرائعَ للتَّدخل في شؤون العرب والمسلمين، ثمَّ يُردف ذلك بدعم "كُتّاب" و"مفكّرين" داخل العالم الإسلاميّ وخارجه، يدَّعون التَّنوير والحداثة والإصلاح، ليُهاجموا الإسلام نفسه، وليس فقط هذه الحركات أو المذاهب الَّتي تتبناها، ولكن بطريقة ناعمة من خلال خلق شكوك حول التَّعاليم الإسلاميَّة، وربمَّا مهاجمة الإسلام و(النَّبيّ محمّد) ﷺ علنًا.

ثَالثًا: سَيفُ الثَّورَات المُلوَّنة

تُقرأ «الثورات الملونة»، في دول مثل أوكرانيا ٢٠٠٤، وجورجيا ٢٠٠٣، وأوروبَّا الشَّرقيَّة، وصولاً إلى ما سُمِّي بـ«الربيع العربيّ» ٢٠١١، على أنَّها إحدى تكتيكات الحرب النَّاعمة. فالمنظَّمات غير الحكوميَّة، والإعلام، والتَّمويل للمعارضة، كانت كلُّها أدوات تجييش للنَّاس، ليس من أجل الوصول إلى حالة أفضل تحكمها أنظمة حرَّة وتعدُّديَّة، بل من أجل زرع الفوضى وضرب الاستقرار، حتَّى يَسهُل التَّحكُّم في تلك الدُّول، وتوجيهها الوِجهة الَّتي يريدها أصحابُ النُّفوذ. استهدفت العقوبات الأمريكيَّة جميعَ المناهضين لها من إيران إلى فنزويلا إلى سوريا وغيرها. وأثَّرت على النَّاتج المحليّ الإجماليّ، لكنَّ ذلك لم يدفع تلك الدُّول إلى التَّخلي عن سياساتها ومواقفها. وفي الوقت نفسه، تتراجع هيمنة الغرب الثَّقافيَّة. فرغم تأثُّرها، الَّذي لا يخفى، بالثَّقافة الغربيَّة، باتت الكي-بوب (K-Pop)،

وبوليوود مثلاً تنافسان هوليوود عالميًّا، وتيك توك المملوكة للصّين تتفوَّق على المنصَّات الأمريكيَّة بين الشَّباب.

ليست الحرب النَّاعمة نمطًا واحدًا ولا شيئًا بسيطًا، بل إنَّها حرب مُركَّبة. فهي تتضمَّن الفِكريَّ والثَّقافيَّ والدّينيَّ والنَّفسيَّ والتَّرفيهيَّ والفَنيَّ والمعرفيَّ، كما أنَّها لا تنفك عن الحرب الصُّلبة، لتكون معها ما يمُكن تسميته بـ "الحرب الماكرة".

تَرفعُ روسيا شعار مقاومة الثَّقافة الغربيَّة، وتُحاول من خلال الاقتصاد طرحَ أفكار جديدة، مثل النّظام العالميّ مُتعدّد الأقطاب، يُولد على أنقاض النّظام العالميّ أُحاديّ القُطبِ. ولتحقيق هذا الهدف تأسَّست مجموعة الـ "بريكس" (BRICS). أمَّا الصّين، فتحاول ربط شعوب الجنوب بها، من خلال مشروع الحزام والطَّريق. واستطاعت أن تبني اقتصادًا قويًّا، تجاوزت استثماراته في آسيا وإفريقيا بحلول ٢٠٢٥ تريليون دولار. بينما تعمل إيران من أجل بناء علاقات استراتيجيَّة مع روسيا والصّين، وتكوين محور قويّ يواجه الهيمنة الأمريكيَّة.

كان هدف الغرب من هيمنته على العالم سياسيًّا وثقافيًّا، ومن خلال ذلك انتشرت الرَّأسماليَّة والرُّوح الليبراليَّة. غير أنَّه لا يقبل أنْ يظهر منافس له؛ ولأجل ذلك، ليس مستبعدًا أن تعمل الولايات المتَّحدة بكل الوسائل على ضرب الاقتصادات المُنافسة، أو الَّتي تحاول أنْ تكون قويَّة ومستقلةً، كما هو الحال بالنِّسبة للصّين وروسيا وإيران.

رَابعًا: صناعَةُ «الهُويَّة المثليَّة»

ليست المِثليَّةُ حالةً طبيعيَّةً موجودة عبر التَّاريخ، بل هي تصنيف أُنتج في القرن التَّاسع عشر، بما هو جزء من عمليَّة أوسع لتصنيف السُّلوكيَّات الجنسيَّة وتأطيرها ضمن أنظمة السُّلطة والمعرفة. وفي هذا السّياق، يُميّز (ميشيل فوكو) بين «الأفعال المِثليَّة»، الَّتي كانت موجودة عبر التَّاريخ، و«الهُويَّة المِثليَّة»، الَّتي ظهرت في العصر الحديث.

ظهرت «المِثليَّة» باعتبارها هُويَّة، مع تطوُّر العلوم الإنسانيَّة، مثل الطبّ النَّفسيّ وعلم النَّفس، في القرن التَّاسع عشر. وقبل ذلك، كانت الأفعال المِثليَّة تُعتبر مجرد سلوكيَّات وخطايا دون أن تُحدّد هُويَّة الشَّخص.

ويربط (فوكو) بين ظهور المِثليَّة، بما هي مفهوم، وبين أنظمة السُّلطة الَّتي تسعى للتَّحكُّم في الأجساد والرَّغبات. فالمثليَّة، بحسب (فوك)، لم تُكتشف باعتبارها حقيقة، بل «اختُرِعَت» عبر الخطابات العَلميَّة والقانونيَّة، الَّتي سعت إلى تصنيف الأفراد وضبطهم.

لا يحتفي (فوكو) بالمِثليَّة باعتبارها تأكيدًا لهُويَّة، بل يدعو إلى النَّظر إليها، بوصفها إمكانيَّة لمقاومة التَّصنيفات المفروضة. ففي مقابلات لاحقة، مثل تلك الَّتي أُجريت معه في السبعينيَّات والثَّمانينيَّات، يقول إنَّ العَلاقات المِثليَّة يمُكن أن تكون فضاءً لتجربة أنواع جديدة من العَلاقات خارج الأُطر التَّقليديَّة.

ويُناقش (فوكو) على مدى صفحات، كيف تحولت السُّلوكيَّات الجِنسيَّة

إلى هُويَّات. فقد ظهرت المثليَّة بوصفها أحد أنماط الجنسانيَّة، عندما تم نقلها من ممارسة الشُّذوذ إلى نوع من الازدواجية الدَّاخليَّة، تعكس ازدواجًا جنسيًّا في الرُّوح. كان الشُّذوذ الجِنسيُّ انحرافًا مؤقَّتًا، أمَّا المِثليَّة فأصبحت الآن نوعًا محدَّدًا[١].

وفي مقابلة نُشرت عام ١٩٨١ في مجلة «Le Gai Pied» يتحدَّث (فوكو) عن المِثليَّة بطريقة أكثر إيجابيَّة، معتبرًا أنَّها يمكن أن تكون أسلوب حياة، أو تجربة إبداعيَّة بدلاً من مجرَّد هُويَّة مفروضة. وفي الحقيقة، لا يقف (فوكو) موقفًا سلبيًّا من المِثليَّة، وتوجد شهادات على أنَّه كان يُمارسها[٢].

لم تعد المِثليَّة عملاً شاذًّا يمارسه أشخاصٌ بطريقة خفيّة، بل صارت هُويَّة للشَّخص، كما هو الرَّجل، وكما هي المرأة. ويُطلَق عليه -أحيانًا- متحوّلٌ جنسيٌّ أو جنسٌ ثالث. وصار -بذلك- أحد الأدوات الَّتي تُستخدم لتفكيك النَّسيج الخُلُقيّ والدّينيّ، الَّذي يصنع تماسك المجتمعات. فلم

١ - ميشيل فوكو: إرادة المعرفة، ترجمة مطاع صفدي، ص٥٠-٧٠.

٢ - كشف تقرير في صحيفة "صاندي تايمز" أن هذا الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو كان شاذًّا جنسيًّا واغتصب أطفالاً في ستينيات القرن الماضي. وقال معد التقرير ماثيو كامبل، إنَّ مثقفًا زميلاً له أثار عاصفة في الأوساط الفكرية الفرنسية عندما قال إن فوكو الذي توفي عن ٥٧ عامًا عام ١٩٨٤، كان في الحقيقة يلاحق الأطفال جنسيًّا «بيدوفيل» (Pedophilia). وتصف أشهر سيرة ذاتية له "شهوة ميشيل فوكو" (١٩٩٣) التي كتبها جيمس ميلر، اهتمام هذا الشخص بالشذوذ والسادية، وكان أول شخصية عامة اعترفت بأنها مِثليَّة، ومات متأثرًا بمرض الإيدز..

تعد المِثليَّة مرضًا ووباءً تجب معالجته واستئصاله -ما دام ذلك ممكنًا- فحسب، بل صارت في الثَّقافة الغربيَّة قضيَّة حقوقيَّة يُدافَع عن ممارسيها. يُريد النَّموذج الغربيُّ فرضَ نفسه من باب الإغراء، وهدفه – فضلاً عن الاستلحاق والاستتباع- تفكيك المجتمعات المُستهدفَة.

استخدمت القُوى الاستعماريَّة في الماضي أساليب القوَّة الصُّلبة، لفرض ثقافتها وتوجيه الشُّعوب. لكنَّها اليوم تلجأ إلى استراتيجيَّة جديدة، تعتمد أدوات العولمة والإعلام. فالمحتوى الإعلاميُّ الغربيُّ -بأفلامه ومسلسلاته وبرامجه الَّتي تُروّج للمِثليَّة- يترك ندوبًا غائرة في وعي الشَّباب، الَّذي يُعاني الأميَّة الثَّقافيَّة والضَّحالة في الوعي، والسَّطحيَّة في التَّفكير.

لم يكن هناك مُجتمع خال من الشُّذوذ عبر التَّاريخ، غير أنَّ ما يفعله الغرب خلال العقود الماضيَة هو تشريع هذا العمل وتقنينه، وجعله يمثّل هُويَّة الشَّخص الَّذي يمُارسه، ليُصبح مقبولاً من النَّاحية الاجتماعية، بعد أنْ كان مُنكرًا ومنبوذًا. وهنا بؤرة الخطر الَّذي يُهدّد مؤسسة الأُسرة والبِنى الاجتماعيَّة، والَّذي يؤكّد ضرورة الاستنجاد بالدّين، خاصَّة بالنّسبة للمجتمعات المُسلمة، من أجل تحذير الشَّباب من هذا العمل وتداعياته.

من المتوقَّع أن يحاول مؤيّدو المِثليَّة الدّفاعَ عن توجُّهاتهم وممارساتهم باسم الحريَّة والمساواة. غير أنَّ الأمر لا علاقة له بالحريَّة والمساوة، فالحريَّة ليست خضوعًا للرَّغبات الخارجة عن منطق الطبيعة، والمساواة ليست هَتكًا للقِيَم الخُلُقيَّة المتَّفق عليها.

والضُّغوط الَّتي تمارسها بعض الحكومات الغربيَّة لفرض الاعتراف بالمِثليَّة على كثير من الأنظمة العربيَّة وغير العربيَّة، تمُهد لمسار طويل، قد يصل في النّهاية إلى هدفه، في ظلّ حكومات يحمل رجالها ثقافة غربيَّة، وبعضهم متَّهم بهذه الممارسة. يحتاج المجتمع بشُيَّبه وشبابه التَّوعية الثَّقافيَّة والدّينيَّة بخطورة هذه الممارسة، والتَّركيز على دور الأُسرة في ترسيخ القِيَم الدّينيَّة والخُلُقيَّة لمواجهة مثل هذه الموجات الهابطة والمدمّرة.

خَامسًا: تَخريبُ الاقتصَاد

يمكن تصنيف ورقة الاقتصاد ضمن الحرب النَّاعمة. فرغم أنَّ بعض الدُّول تضطر للتعامل مع البنوك الدَّوليَّة، الَّتي تملك دولٌ غربيَّةٌ -على رأسها الولايات المتحدة- النصيبَ الأكبر في أسهمها، لكنَّ أكثرَ تلك الدُّول يرغب في ذلك من أجل تنفيذ مشاريعه، ويتبنَّى الليبراليَّة الجديدة طمعًا في النُّهوض باقتصاده. يعمل الغرب، من خلال الاقتصاد على تحويل المال إلى أداة الخنق الأقوى، ولكن بنعومة، من خلال العقوبات الاقتصاديَّة، الَّتي يفرضها على الدول المناوئة له، ما يعرف بـ القاتل الاقتصادي» الَّذي يتوسَّط لتلقي قروض بفوائد باهظة، عبر مؤسَّسات مثل «صندوق النَّقد الدَّولي»، مع شروط تضمن بقاء الدول المسلمة والعربيَّة، بشكل خاص، تحت سيطرته. وفي حالات كثيرة يُجبرها على خصخصة

موارد الدَّولة من نفط وغاز ومعادن لصالح شركاته. وبهذه الطَّريقة يضمن السَّيطرة على الموارد الأساس، ويترك فُتات الأرباح للحكومات المحليَّة، لتبقى تابعة وبلا استقلال حقيقي.

وهو يفرض اتفاقاتٍ تجاريَّة تجعل دول المسلمين مصدرًا للمواد الخام فقط، بينما يُبقي الصناعات المتقدّمة تحت سيطرته. فهو يمنعهم من تطوير صناعات محليَّة قويَّة عبر العقوبات أو التلاعب بالأسواق. ولضمان تحقيق ذلك كلّه، يدعم الغرب الأنظمة الاستبداديَّة والعلمانيَّة التَّابعة، الَّتي تخدُم مصالحه حتَّى لو كانت مكروهة شعبيًّا. وهو يزودها بالسّلاح، ليس من أجل الدّفاع عن حدودها، بل من أجل قمع المعارضين.

وعندما يجد أنَّ الأُمور لا تسير كما يُريد، وأنَّ النّظام القائم يرفض التَّبعيَّة، ويدير بلاده باستقلاليَّة، يُشعل حروبًا داخليَّة بالوَكالة، عبر دعم فصائلَ متمردةٍ، من أجل إبقاء المِنطقة غارقة في الفوضى، ويستطيع أن يبرّر وجود قواعد عسكريَّة له بدعوى الحفاظ على الاستقرار.

وإذا حاولت دولة عربيَّة أو مسلمة التَّمرُّد والسَّير في طريق الاستقلال السّياسيّ أو الاقتصاديّ، يَفرض عليها الغربُ عقوبات اقتصاديَّة خانقة تحت ذرائع واهية مثل «دعم الإرهاب» أو «انتهاك حقوق الإنسان».

وكما تُفرض إملاءاتٌ تتعلَّق بالسياسات الاقتصاديَّة للدُّول الأخرى، يحاول الغرب تصدير نظامه الاقتصاديّ الرَّأسماليّ، من أجل فتح أسواق المسلمين أمام شركاته الضَّخمة، ومنع الشُّعوب المسلمة من تطبيق نظامها

الإسلاميّ المسيَّج بالأخلاق الرَّفيعة، الَّذي يمنع الرّبا والأعمال السَّوداء والاحتكار والغش، ويشجّع على التَّضامن والتَّعاون من خلال سلسلة من الإجراءات والتَّشجيعات، الَّتي تأخذ في الاعتبار إيمان النَّاس، مثل الصَّدقة والبرّ والوقف، ويفتح أبواب الإنتاج الزراعيّ والصناعيّ أمام المستثمرين وعموم الرَّاغبين، من خلال تشجيع المبادرة الحرَّة، والإقرار بالملكيَّة الخاصَّة.

وعندما ننظر إلى بنية الاقتصاد الرَّأسماليّ نفسه من الدَّاخل، فإنَّنا نجد هذا النّظام، الَّذي يحكم الغربَ، لا يخضع في حركته لاعتباراتٍ عقلانيَّة محدَّدة -لا مجال فيها للمفاجآت غير المحسوبة والخارجة عن السَّيطرة- بل صار كلُّ شيءٍ محكومًا بالفوضى والمفاجأة، حتَّى أنَّ كثيرًا من المضاربين يفقدون حياتهم بسبب انهيار توقُّعاتهم فجأةً.

أعطى النّظام الاقتصاديُّ الرَّأسماليُّ الرّبح قِيمةً عُليا، واستبعد القِيَم الأخرى، أو همَّشها إلى حدّ كبيرٍ. والرّبح المقصود هنا، هو الرّبح الماديُّ، الَّذي لم يعد وسيلة لتحقيق الغايات القِيَميَّة الرَّفيعة، وممثّلا لقيمة الجُهد المبذول، بل تحوَّل إلى غاية بحد ذاتها. وقد أدَّى ذلك إلى تراكم الثَّروة بيد قبضة مجموعة من الأشخاص، فأُفرغ كلُّ شيءٍ من معناه، وتحوَّل الجميع إلى عبيدٍ لرأس المال المتراكم في دورة مجنونة حطمت كلَّ شيء، ليختلَّ النّظام العالميُّ كلُّه، ويتجنَّد الجميع من أجل تحقيق نزوات قِلَّة قليلة من التَّافهين، الَّذين لا يبحثون إلَّا عن تلبية رغباتهم، ويُصبحون مقلّدين لهم

في تفاهتهم، ويبذلون كلَّ جهد لتقديس هذه الرَّداءة.

يخضع النّظام الرَّأسماليُّ المتوحّش، الَّذي نظَّرت له الليبراليَّة الجديدة لنفوذ الطبقة «الأوليغارشية»، الَّتي حصلت على الثَّروة والسُّلطة بطرق غير مشروعة، وباتت تُراكم الثَّروات وتحدِّد للنَّاس ما يجب فعله، وكيف يجب أنْ تُفكر، وما الَّذي يجب أنْ تُقدّسه وتعبده.

ونظريَّة «التَّقاطر إلى الأسفل»، الَّتي تعني أنَّ الأثرياء كلَّما ازدادوا ثراءً أثَّر ذلك إيجابًا على بقيَّة الفِئات الاجتماعيَّة؛ لأنَّ الثَّراء سرعان ما يتقاطر نحو الأسفل، لا يؤيّدها الواقع. والَّذي نراه أنَّه كلَّما ازداد الأثرياء ثراءً، ازداد الفقراء فقرًا وتزايدت أعدادهم. وهذه النَّظريَّة رغم بُطلانها، لكنَّ «أشباه الخبراء» لا ينفكُّون عن ترديدها في الإعلام ومواقع التَّواصل.

وممَّا ضاعف تدهور هذا الواقع، تواطؤ الجهات الَّتي كان يُفترض أنَّها تمثِّل قوَّة كابحةً لانفلات رأس المال بعد تدجينها وإخضاعها. وهذه هي حالة النّقابات الَّتي لم تعد تخدُم مصالح العمَّال، بقدر ما باتت تخدُم مصالح رأس المال. فقد صارت مهادِنةً للشَّركات الكُبرى، وأصبحت قيادات النّقابات، بدورها، تعيش حالةً من الثَّراء، وبات بعضهم مستثمرين وأصحاب أسهم في الشَّركات متعدّدة الجنسيَّات. لم تعُد النّقابات تدافع عن حقوق العمَّال، بقدر ما أصبحت تُدافع عن أصحاب رؤوس الأموال، وتبرّر لهم ممارساتهم الخارجة عن القوانين وعن القِيَم الإنسانيَّة، الَّتي تدعو إلى احترام كرامة الإنسان.

وهذا الأمر ينسحب على الأحزاب اليساريَّة، الَّتي طالما دافعت عن «العدالة الاجتماعيَّة» ودولة الرفاه، ولم يعُد ممكنًا التَّمييز بين يساريّ ويَمينيّ، في ظلّ هيمنة النّظام الرَّأسماليّ في العالم كلّه. فمثلاً، لم يعد الحزب الشُّيوعيُّ الصّينيُّ يملك من الفِكر الاشتراكيّ سوى الاسم، وأصبح الاقتصاد الصّيني أحدَ أكبر الاقتصادات الرأسماليَّة في العالم. وفي أمريكا لا يختلف الحزب الدّيمقراطيُّ اليساريُّ كثيراً عن الحزب الجمهوريّ اليمينيّ المُحافظ، إلاَّ في جنوح الديمقراطيّين نحو نزعة ليبراليَّة غير منضبطة، تُشرّع الإجهاض والمِثليَّة والإدمان، وتجعل الأداءات الجمركيَّة على الشَّركات الكُبرى في أدنى مستوياتها.

الفَصلُ الثَّالِثُ:

القُوَّةُ النَّاعِمةُ المُضَادَّةُ

لا سبيل إلى مقاوَمة نظامِ التَّفاهة الرَّأسماليّ والحرب النَّاعمة، الَّتي يخوضها الغرب ضدَّ الشُّعوب، إلَّا من خلال بناء ثقافة قِيَميَّة جادَّة، قائمة على الوعي العميق بتداعيات هذه الحرب، والإيمان الرَّاسخ الَّذي يدعو إلى التَّمسُّك بالقِيَم الدّينيَّة الرَّفيعة، وينتَّصر للرُّؤية العقلانيَّة العميقة، ويرفع من شأن العِلم والمعرفة، ويُقدّم وصفاته الخاصَّة، من أجل وعي سياسيّ واجتماعيّ حُرّ ومستنير. وهذا لا يمُكن تحقيقه إلَّا بطريقة منظَّمة ضمن استراتيجيَّة شاملة. فالبحثُ عن الخلاص الفرديّ لا يُجدي أمام هذا الإعصار الثَّقافيّ، ممَّا يستلزم طريقةَ تفكيرٍ جذريَّة تُنهي المؤسَّسات والقواعد والقوانين، الَّتي تضرُّ بالصَّالح العام، واستبدال أخرى صالحة بها.

● المَبحَثُ الأَوَّلُ: الأُسسُ النَّظريَّةُ للمُقاوَمةِ النَّاعمة

حذَّر (زيغمونت باومان -Zygmunt Bauman)، في كتابه "الحداثة السَّائلة"، من أنَّ "الفردانيَّة والماديَّة الغربيَّة تُنتجان عالماً سائلاً تذوب فيه القِيَم

الثَّابتة"[1]، وأشار إلى أنَّ الحرب النَّاعمة تُفاقم هذا الهبوط الخُلُقيّ، بترويجها للاستهلاكيَّة والإلحاد، ممَّا يُعمّق الانقسامات الاجتماعيَّة. ففي سِياق الحداثة السَّائلة، يُترك الأفراد لأجهزتهم الخاصَّة، دون مراكز مرجعيَّة ثابتة.

كما ذهب (ألاسدير ماكنتاير -Alasdair MacIntyre)، في كتابه "ما بعد الفضيلة"، إلى أنَّ "فقدان الإطار الخُلُقيّ التَّقليديّ، كما يحدث تحت ضغط الثَّقافة الغربيَّة، يُنتج مجتمعات مشتَّتة"[2]، مُبرِزًا كيف تُستخدم الحرب النَّاعمة لتَفكيك الرَّوابط الجماعيَّة.

وكما ظهرت مقاوَمة صُلبة تستخدم القوَّة العسكريَّة وما يُشبهها لمقاومة الاعتداءات الخارجيَّة، ظهرت أيضًا، وبالتَّوازي مع ذلك، مقاومةٌ ناعمةٌ تستخدم الوسائلَ المعرفيَّة والعلميَّة والثَّقافيَّة المناسبة لمواجهة هجمات القُوى المُهيمنة. ويمُكننا القول إن جزءًا مهمًّا من النَّسيج الاجتماعي في البلاد الإسلاميَّة استطاع الصُّمود، ومقاومة الهجمات الغربيَّة النَّاعمة بفعل التَّعاليم الإسلاميَّة القويَّة والرَّاسخة.

أَوَّلًا: المُقاوَمةُ الفكريَّةُ

لا شكَّ في أهميَّة سِلاح الفِكر في الإسلام ومركزيَّته في مُواجهة الفِكر

1 - Bauman, Zygmunt: Liquid Modernity, p3031-.

2 - MacIntyre, Alasdair. After Virtue (A Study in Moral Theory), p112 - 113.

الغربيّ وسواه، سواء أكان فلسفةً أم استشراقًا أم علومًا اجتماعيَّة أم فلسفة تشريعٍ، أم غير ذلك. فالفِكر الإسلاميُّ مَثَّل على الدَّوام التيَّار الأكثر أصالة، والأكثر قدرة على مواجهة الأفكار الماديَّة والإلحاديَّة وغير المتَّسقة. وهذه القوَّة والأصالة تجد في تُراث الوحيّ والنُّبوَّة والإمامة منبعها الأساس.

يحتاج المؤمن خاصَّة، والمُسلم عامَّة إلى معرفة دينه بطريقة تُحصّنه من هجمات الثَّقافات الهابطة، الَّتي باتت تُهاجم النَّاس في بيوتهم من خلال وسائل الإعلام، ومواقع الإنترنت، والتَّواصُل الاجتماعيّ. ومعرفة الدّين في: مُعتقداته وتشريعاته وأحكامه وقِيَمه، اعتبرها الإسلام واجبًا عينيًّا على كلّ مُسلم. فالتَّحصين الفِكريُّ والثَّقافيُّ لا يكون إلَّا ذاتيًّا، ومَن لم يُحصّن نفسه ستهجم عليه الفِتن والشُّبهات، الَّتي قد تجعله يخسر دينه ونفسه. ورغم أنَّ العِلمَ والمعرفة واجبان عينيّان، فإنَّ الجماعة المؤمنة يمُكنها المشاركة في ذلك، من خلال الجلسات والنَّدوات والكتابات، الَّتي تلتزم الأُطر القرآنيَّة والإسلاميَّة. ولا يجب، التَّعويل في ذلك، على الدَّولة وبرامجها التَّعليميَّة، الَّتي قد لا تستجيب لمِثل هذه التَّحديات، بل ربمَّا أسهمت في هشاشة الوعي العام، وتضليل الشباب بشكلٍ متعمَّد، خاصَّةً في حالة الحكومات العلمانيَّة التَّابعة.

يقُدّم الفِكر الإسلاميُّ، المستندَ إلى تعاليم القرآن وسنَّة المعصوم، من خلال تركيزه على القِيَم الخُلُقيَّة والعدالة الاجتماعيَّة والمقاومة الفِكريَّة، أدوات فعالة لحماية الإسلام والمسلمين من التَّأثيرات الثَّقافيَّة الغربيَّة، الَّتي

قد تهدّد الهُويَّة الإسلاميَّة. وهذا الفكر يؤدّي ذلك، من خلال استحضار التُّراث التَّاريخيّ والرُّوحيّ الغنيّ بالأحداث والمُناظرات والحوارات والأحاديث والحِكَم والتَّعاليم المأثورة.

وعندما تتكرَّر قصص النَّبيّ وأئمة الإسلام عليهم السلام، فإنَّ ذلك ليس مجرد استحضار لأحداث تاريخيَّة، بل هو إحالة إلى دلالاته، ورمزيَّة في مقاومة الظُّلم والطُّغيان والاعتداء، بما في ذلك الحرب النَّاعمة، الَّتي يُمكن القول إنَّها كانت قائمةً ضدَّ الإسلام طوال مراحله التَّاريخيَّة المُختلفة.

وفي رأي (كارل إرنست)، أستاذ الدراسات الدّينيَّة بجامعة «نورث كارولاينا»، طوَّر الشّيعة مسار مقاومة ثقافيَّة قويَّة، ترتكز على التَّضحية والمُثُل العُليا، ممَّا يمنحهم مناعة ضدَّ الهيمنة الثَّقافيَّة الغربيَّة[1]. وهذا التَّركيز في الهُويَّة الذَّاتيَّة يُساعد المؤمنين على التَّمسُّك بقِيَمهم في مواجهة العولمة الغربيَّة، الَّتي قد تفرض أنماطَ حياة ماديَّة أو فرديَّة.

ومن ناحيةٍ أُخرى، يقدّم الفكرُ الإسلاميُّ إطارًا خُلُقيًّا وفلسفيًّا يرفض النَّزعات الاستهلاكيَّة، الَّتي يُروّج لها الغزو الثَّقافيُّ الغربيُّ. فمن خلال تعاليم الزُّهد والعدالة، والتَّركيز على المجتمع بدلًا من الفرديَّة المفرطة، يشجّع الإسلام على مقاومة ثقافة التَّرف، وإيحاءات الإعلام الغربيّ الماكر.

وتُلاحظ (كارين أرمسترونغ -Karen Armstrong) أنَّ الفِكر الشّيعيَّ

---

١ - كارل إرنست: على نهج محمد، ص١٠٠-١٥٠.

يحمل، في طياته، نقدًا ضمنيًّا للماديَّة الغربيَّة؛ حيثُ يركّز على الرَّوحانيَّات والعدالة، بدلاً من النَّزعة الاستهلاكيَّة، الَّتي تُهيمن على الثَّقافة الحديثة[1]. وهذا النَّقد يُعمّق الوعيَ بمخاطر الحملات الثَّقافيَّة، ويوفّر أساسًا للحفاظ على القِيَم الإسلاميَّة.

ومن زاوية أُخرى، يُسهم الفِكرُ الإسلاميُّ في حماية الدّين وثقافته، من خلال تطوير آليَّات فكريَّة واجتماعيَّة للمقاومة. فمفهوم «التَّقيَّة»، على سبيل المِثال، يعكس مرونةً تاريخيَّة، ساعدت الشّيعة على الحِفاظ على هُويَّتهم في ظلّ الاضطهاد، وهو ما يُمكن تطبيقه اليوم، لمواجهة التَّأثيرات الثَّقافيَّة الخارجيَّة. كما أنَّ فكرة «الانتظار» تحمل بُعدًا مستقبليًّا يُجدّد الأمل، ويرسّخ الصُّمود.

إنَّ المسلمين الشّيعة، بفضل تراثهم الفِكريّ والرُّوحيّ، يمتلكون قدرةً استثنائيَّة على مقاومة التَّغريب الثَّقافيّ؛ حيثُ يَجمعون بين المرونة والتَّمسُّك بالمبادئ، كما يقول عالم الاجتماع البريطانيُّ (روجر بالارد - Roger Ballard) (١٩٤٣ - ٢٠٢٠)، وهذه القدرة تجعل الفِكرَ الإسلاميَّ درعًا فعَّالاً ضدَّ محاولات فرض نماذج غربيَّة مُسقطة.

كما يلعب الفِكر الإسلاميُّ الشّيعيُّ، بشكل خاص، دورًا في تعزيز التَّضامن الاجتماعيّ بين المسلمين، وهو عامل حاسم في مواجهة الغزو

---

١ - كارين أرمسترونغ: معركة من أجل الإله (تاريخ الأصول)، ص٣٥٠-٤٠٠.

الثَّقافيّ. فالطُّقوس الجماعيَّة، مثل عاشوراء، لا تعزّز الرَّوابط الدَّاخلية فحسب، بل تُرسل رسالةً قويَّة عن الوحدة والصُّمود. وبحسب المؤرّخ (مايكل أكسورثي - Michael Axworthy) (١٩٦٢-١٠١٩): «ليست عاشوراء مجرَّد حدث دينيّ، بل هي تعبير ثقافيٌّ وسياسيٌّ يقاوم التَّفكُّك الاجتماعي، الَّذي قد يأتي مع الغزو الثَّقافيّ الغربيّ، ممَّا يجعل الشّيعة نَموذجًا للتَّماسك في وجه التَّحديات»[١].

يُقدّم الفكرُ الإسلاميُّ سياجًا قويًّا يحمي الإسلام والمسلمين من الغزو الثَّقافيّ الغربيّ، من خلال تعميق الشُّعور بالانتماء، وتقديم بديل فكريّ، وبناء نظامٍ خُلُقيّ، وتطوير آليَّات مقاومة، ودعم التَّضامن الاجتماعيّ. وهذه الجوانب لم تمر دون أن يُلاحظها مفكرون غربيُّون، أقرُّوا بقدرة هذا الفكر على مواجهة التَّحديات الجديدة[٢]. وبذلك، يظلُّ الإسلام حصنًا فكريًّا وروحيًّا يحمي من التَّآكل الدَّاخليّ في مواجهة الحرب النَّاعمة.

ثَانيًا: القِيَمُ الإسلَاميَّةُ في مُواجَهةِ الضَّحالَة

يُقدّم الإسلام نموذجًا متكاملاً للحياة، يعتمد على التَّقوى والزُّهد والسَّيطرة على النَّفس والحِكمة والتَّروي، وهي قِيَمٌ تُشكّل دِرعًا واقيًا

١ - مايكل أكسورثي: إيران الثوريَّة (تاريخ الجمهورية الإسلامية)، ص٧٠-١٣٠.
٢ - جون إسبوزيتو: التهديد الإسلامي (أسطورة أم واقع؟)، ص١٣٠-١٨٠.

ضدَّ الضَّحالة والغريزيَّة المُفرطة والهبوط الخُلُقيّ، الَّذي تُروّج له الثَّقافةُ الليبراليَّة، وفِكر ما بعد الحداثة. لا تعكس هذه القِيَم فلسفةً روحيَّة فحسب، بل هي استراتيجيَّة عمليَّة للحفاظ على الكرامة الإنسانيَّة والتَّماسك الاجتماعيّ في مواجهة تيَّارات تُعزّز الفرديَّة المطلقة والانغماس في حُمَّى تلبية الرَّغبات الحِسيَّة دون ضابط.

وتَجنُّب الغرق في الملذَّات الماديَّة المؤقَّتة، وعدم إعطائه أهميَّة هو ما دعا إليه الإسلام: ﴿**لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾ [الحديد: ٢٣]. فهو يُعلّم الإنسان التَّجرُّد من التعلُّق الماديّ والتَّركيزَ على ما هو أسمَى. وهذا المبدأ يُقاوِم الضَّحالة الَّتي تُروجها الثَّقافة الليبراليَّة، والنَّزعة الاستهلاكيَّة الَّتي تأسر الإنسان.

وقد انتقدَ (تشارلز تايلور)، في كتابه «أخلاق الأصالة»، «الفردانيَّة النَّاعمة في الثَّقافة الغربيَّة، وكيف أنَّ الأصالة يمُكن أن تتحوَّل إلى مجرَّد تعبير عن الرَّغبات الفرديَّة دون أفق خُلُقيّ عميق»[1]، بينما يُقدّم الزُّهد الإسلاميَّ والتَّقوى بديلاً يرتقي بالنَّفس فوق هذه الدَّوامة.

والسَّيطرة على النَّفس، أو «الجهاد الأكبر»، كما وصفه (النَّبيُّ محمد) ﷺ، سلاح فعَّال ضدَّ الغريزيَّة المُفرطة، الَّتي يُشجّعها فكر ما بعد الحداثة. فهذا الفِكر، كما يرى (جان بودريار -Jean Baudrillard) (١٩٢٩-٢٠٠٧)،

1 - Charles Taylor: The Ethics of Authenticity, 3540-.

يُمجّد اللحظة الغريزيَّةَ ويُلغي الحدود الخُلُقيَّة، ممَّا يؤدي إلى انهيار الضَّوابط الداخليَّة[1]. وفي المقابل، يدعو الإسلام إلى ضبط النَّفس، كما في قوله تعالى: ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ**﴾ [النازعات: ٤٠- ٤١]، ممَّا يُقوّي القدرة على مقاومة الانحرافات مثل الإباحيَّة والإدمان والاعتداء وانتهاك الخصوصيَّات.

وتتجلَّى الحكمة، باعتبارها قِيمةً إسلاميَّةً أساسًا، في دعوة القرآن للتَّفكُّر والتَّعقُّل ﴿**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا**﴾ [البقرة: ٢٦٩]. وهذه الحكمة تُواجه الضَّحالة الفِكريَّة، الَّتي يُنتجها فكرُ ما بعد الحداثة؛ حيثُ يرى (فريدريك جيمسون-Fredric Jameson) (١٩٣٤ – ٢٠٢٤) أنَّها «تُحوّل الثَّقافة إلى سطحيَّة تخدُم الاستهلاك»[2]. يُشجّع الإسلام -عبر الحِكمة- على التَّفكير العميق واتّخاذ القرارات المتوازِنة، ممَّا يُقلّل من الهبوط الخُلُقيّ النَّاتج عن الاندفاع وراء النَّزوات.

ومن خلال التَّروّي، يكتسب الإنسان القدرة على الصَّبر والتَّأني في مواجهة الإغراءات السَّريعة، الَّتي تُروجها الثَّقافة الليبراليَّة. وقد انتقد (روجر سكروتون)، في كتابه «الثَّقافة الحديثة»، هذه الثَّقافة؛ لأنَّها تُعزّز

1 - Jean Baudrillard: Simulacres et Simulation, p2369-45-33-.

2 - Fredric Jameson, Postmodernism or The Cultural Logic of Late Capitalism, p6 -18.

الإشباعَ الفوريَّ للرَّغبات[1]، بينما يأمر الإسلام بالصَّبر والتَّدبُّر. وهذا النَّهج يُساعد في بناء مجتمعٍ متماسكٍ يقاوم الانجراف وراء الغرائز.

ترتكز الثَّقافة الإسلاميَّة على الأبعاد العقليَّة والرُّوحيَّة، لتكون بذلك حِصنًا متينًا ضدَّ الضَّحالة والغريزيَّة والهبوط، بعكس الثَّقافتين: «الليبراليَّة» و«ما بعد الحداثة»، اللتين تُركّزان على الجسد واللحظة الآنيّة. فهذه الرُّؤية أنتجت -بحسب (تايلور) و(سكروتون)- أزمة خُلُقيَّة. ويقدّم الإسلام حلاً عمليًّا يُعيد التَّوازن بين الحريَّة والمسؤوليَّة، ممَّا يجعله نَموذجًا فعَّالاً لمقاومة التَّحلُّل المُعاصر.

ومن الأمثلة على ذلك، موقف الإسلام من المخدّرات والخمور. فهو يحرّم هذه الأشياء بشكلٍ قاطع، وتحريم الإسلام لها، مظهرٌ واضح من مظاهر حِرصه على تحصين المجتمع، وحمايته من الاستعباد والتَّلاعُب. وهذا الحظر ليس مجرَّد قاعدةٍ دينيَّة، بل استراتيجيَّة شاملة، تهدف إلى الحفاظ على العقل والإرادة الحرَّة، وهما أساس تماسك الأفراد والجماعات. ويُريد الإسلام، من خلال تحريم استهلاك هذه المواد، بناءَ مجتمعٍ واعٍ وقادرٍ على مقاومة التَّحديات الدَّاخليَّة والخارجيَّة.

وبعكس ما يحاول بعض الكُتَّاب الحداثيّين العرب ترويجه عن إباحة تناول الخمور، بزعم عدم وجود نص قرآنيّ يُحرّمها، نجد في الحقيقة،

1 - Scruton, Roger: Bloomsbury Continuum, p2040-.

تحريم الخمر والمُسكرات في نصوصٍ صريحة في القرآن والسُّنَّة، مثل قوله -تعالى-: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [المائدة: ٩٠]. فإذا كان الخمر رجسٌ من عمل الشَّيطان، فهل يُبيح الإسلام الرّجس من عمل الشيطان؟ ثمَّ إنَّ الآية تتضمَّن أمرًا بالاجتناب، والاجتناب لا يقتصر على الشُّرب، بل يشمل أيَّ تعامل مع الخمر؛ من إنتاج وتوزيع وحمل وتقديم، وجلوس على طاولة يوضع عليها.

إنَّنا نجد التَّحريم نصًّا عند الرَّبط بين آيتين تناولتا الموضوع. ففي رواية عن (علي بن يقطين) قال: «سأل المهديُّ العباسيُّ، أبا الحسن عليه السلام عن الخمر هل هي محرَّمة في كتاب الله؟ فإنَّ النَّاس يعرفون النَّهى عنها ولا يعرفون التَّحريم لها، فقال له أبو الحسن عليه السلام: بل هي محرَّمة في كتاب الله يا أمير المؤمنين! فقال [أي العباسي]: في أي موضع محرَّمة هي في كتاب الله جلَّ اسمه يا أبا الحسن؟! فقال عليه السلام: قول الله -عز وجل-: ﴿**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ**﴾ [الأعراف: ٣٣]. فأمَّا قوله: ما ظهر، يعني الزّنا المُعلن إلى أن قال: وأمَّا الإثم فإنَّها الخمر بعينها وقد قال الله -عز وجل- في موضع آخر: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ**﴾ [البقرة: ٢١٩]»[1].

---

١ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج٦، ص٤٠٦.

إنَّ تحريمَ الخمور والمُخدّرات مرتبطٌ بالأساس باحترام إنسانيَّة الإنسان، الَّتي لا وجود لها مع فقدان العقل. فهو ميزة الإنسان، وأعظم نعم الله عليه. ومن فقده أصبح عرضةً للاستعباد والضَّياع. وهذا يعني أنَّ هذا التَّحريم يهدف إلى حماية الفرد من المتلاعبين، الَّذين يريدون جعل النَّاس أداة طيّعة بأيديهم. وهذه الرُّؤية تُبرز البعدَ الاجتماعيَّ للتَّحريم؛ حيثُ يُحافظ على النَّسيج الأخلاقيّ والاقتصاديّ للمُجتمع، ممَّا يجعل اختراقه، من قوى خارجيَّة قد تستغل الإدمان كسلاح في الحرب النَّاعمة، شيئًا مُستعصيًا.

وكما حرَّم الإسلام الخمرَ، حرَّم أيضًا المُخدّرات. فهي من المسكرات الَّتي ينطبق عليها قول النبيّ ﷺ: «كلُّ مسكرٍ حرام»[1]، وهي أشدُّ خطرًا من الخمر. بل إنَّنا نجد نصوصًا واضحة في تحريم المُخدّرات مثل ما رُوي عن (رسول الله) ﷺ، أنَّه قال: «سيأتي زمان على أمَّتي يأكلون شيئًا اسمه البنج، أنا بريء منهم، وهم بريئون مني». وقال: «سلّموا على اليهود والنَّصارى، ولا تسلّموا على آكل البنج». و»من احتقر ذنب البنج فقد كفر». و»من أكل البنج فكأنمَّا هدم الكعبة سبعين مرة، وكأنمَّا قتل سبعين ملكًا مقرَّبًا، وكأنمَّا قتل سبعين نبيًّا مرسلاً، وكأنمَّا أحرق سبعين مصحفًا، وكأنمَّا رمى إلى الله سبعين حجرًا، وهو أبعد من رحمة الله من شارب

١ - القاضي النعمان: دعائم الاسلام، ج٢، ص١٢٨.

الخمر، وآكل الرّبا، والزّاني، والنَّمَّام»[١].

والبنج نوع من المُخدّرات، وتحريمه إنَّما هو بهذا العنوان؛ حيث لا يوجد عنوان آخر لتحريمه غير الإسكار وغيبوبة العقل. أمَّا الحالات الطّبيَّة مثل استخدامه في العمليَّات الجراحيَّة، فهو فضلاً عن أنَّه ليس أكلاً بل حقن، فهو خارجٌ عن موضوع التَّحريم لأنَّه استثناءٌ محكومٌ بقاعدة الضَّرورة. كما ينطبق على تناول المُخدّرات عنوان الإضرار بالنَّفس. والإضرار بالنَّفس محرَّم، كما يقول الفقهاء تبعًا لبعض النُّصوص.

ويتَّفق الباحث الأمريكي (ألفريد ماكوي -Alfred McCoy)، في كتابه «سياسات الهيروين» على خطورة المُخدّرات، بوصفها أداةً للسَّيطرة؛ حيثُ يوثّق كيف استخدمت وكالات استخباراتيَّة غربيَّة تجارة المُخدّرات لإضعاف المجتمعات المعادية سياسيًّا. ويقول: «لقد أسهمت العمليَّات السّريَّة الَّتي نفَّذتها وكالة المخابرات المركزيَّة الأمريكيَّة، من خلال حماية كبار تجار المُخدّرات، بشكلٍ كبيرٍ في توسيع تجارة الهيروين العالميَّة»[٢].

ويرى (ماكوي)، أنَّ المجتمعات الَّتي تفتقر إلى الحماية من الإدمان تُصبح أكثر عرضة للاستغلال. وهو ما لا نجده خارج الإسلام، الَّذي يُحرم

---

١ - المحدّث النوري: مستدرك وسائل الشيعة، ج١٧، ص٨٥-٨٦.

2 - Alfred W. McCoy: The Politics of Heroin: CIA Complicity in the Global Drug Trade, Lawrence Hill Books, Place of Publication: New York, USA, 2003, p2.

المُخدّرات، ليخلقَ بذلك حاجزًا استباقيًّا ضدَّ هذه الاستراتيجيَّات.

وبحسب (روجر سكروتون)، يُضعف فقدان السيطرة على النفس، كما يحدث مع تعاطي المخدرات والخمور، قدرةَ المجتمعات على الحفاظ على هُويَّتها وقِيَمها في مواجهة التَّغريب[1]. وهو يُشيد بالقوانين الَّتي تُقيّد هذه المواد. وهذا ما يتماشى مع توجُّهات الإسلام، الَّذي يُعطي الأولويَّة للعقل، باعتباره أساسًا للحريَّة الحقيقيَّة، بعكس الليبراليَّة، الَّتي قد تُبرّر التَّعاطيَ تحت شعار الحريَّة الفرديَّة، وهي في الحقيقة حريَّة سلبيَّة، تُلبّي الغرائز ولا تحترم العقل. إنَّ الإدمان، سواء أكان على المُخدّرات أو الخمور أو غيرها، يُحوّل الإنسان إلى كائن خاضع وموجَّه ومستعبد دون صعوبة.

ثَالثًا: تَحصينُ المُجتَمع

يُعَدُّ تحريمُ الإسلامِ الزّنا والمِثليَّة والإباحيَّة جزءًا من رؤيته الشَّاملة لتحصين الأُسرة والمجتمع، فهذه الممارسات تمثّل تهديدًا للنّسيج الاجتماعي والخُلُقيّ. وهذا التَّحريم لا يهدف إلى تقييد الحريَّات، كما قد يقول البعض، بل إلى حماية المؤسَّسة الأُسريَّة بصفتها أساسَ استقرار

1 - Roger Scruton: The West and the Rest: Globalization and the Terrorist Threat, ISI Books, Wilmington, Delaware, USA, 2002, p82.

المجتمع، وضمان بيئة صحيَّة لتربية الأجيال.

ويستند تحريمُ الزّنا والمثليَّة إلى نصوص صريحة، مثل قوله -تعالى-: ﴿**وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلا**﴾ [الإسراء: ٣٢]، وفي قصة قوم لوط، في سورة هود إدانة للمثليَّة: ﴿**وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ. إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ**﴾ [الأعراف: ٨٠-٨١]. فالمثليَّة فاحشة، وقد حرَّم القرآن الفواحش كلَّها: ﴿**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ**﴾ [الأعراف: ٣٣]. وهذه الحُرمة تشمل اللواط بين الذكور، كما تشمل السّحاق بين الإناث.

وفي الحديث عن (أبي عبد الله) عليه السلام قال: قال (رسول الله) صلى الله عليه وآله: «من جامع غلامًا جاء يوم القيامة جُنُبًا لا يُنقّيه ماء الدنيا، وغضب الله عليه ولعنه وأعدَّ له جهنَّم وساءت مصيراً، ثمَّ قال: إنَّ الذَّكر يركب الذَّكر فيهتز العرش لذلك»[١]. وعنه عليه السلام: «حُرمة الدُّبر أعظم من حرمة الفرج، وإنَّ الله أهلك أمَّة لحرمة الدُّبر ولم يهلك أحدًا لحرمة الفرج»[٢].

وفي حديث آخر، عن (أبي عبد الله) عليه السلام: «إنَّ امرأة قالت له: أخبرني عن اللواتي باللواتي ما حدَّهن فيه؟ قال: حدُّ الزّنا، إنَّه إذا كان يوم القيامة

١ - الحر العاملي: وسائل الشيعة، ج٢٠، ص٣٢٩، ح٢٥٧٤٤-١.
٢ - الحر العاملي: وسائل الشيعة، ج٢٠، ص٣٢٩، ح٢٥٧٤٥-٢.

يؤتي بهن قد أُلبسن مقطعات من نار، وقنعن بمقانع من نار، وسرولن من نار، وأدخل في أجوافهن إلى رؤوسهن أعمدة من نار، وقذف بهن في النَّار، أيَّتها المرأة، إنَّ أوَّل من عمل هذا العمل قوم لوط فاستغنى الرجال بالرجال، فبقي النّساء بغير رجال ففعلن كما فعل رجالهن»[١].

يُفسد الزّنا والمِثليَّة العَلاقات الأُسريَّة، ويهدّدان استمرار النَّسل البشريّ، وتحريمهما يعني صيانة الحياة المشتركة بين الزَّوجين الرَّجل والمرأة. والمحافظة على طهارة الأُسرة واحترامها وقوَّة المجتمع وتماسُكه.

ويؤكّد (روجر سكروتون) في كتابه «الرَّغبة الجنسيَّة» على أهميَّة ضبط السلوك الجنسيّ؛ حيثُ يرى أنَّ التَّحرُّر الجنسيَّ المُفرطَ، كما في الإباحيَّة والمِثليَّة، يُقوّض المؤسَّسات الاجتماعيَّة مثل الأسرة، ويُنتج أفرادًا منفصلين عن بعضهم[٢]. وهو يؤكّد على أهميَّة الالتزام بالضَّوابط الخُلُقيَّة، الَّتي تُحافظ على العَلاقات ضمن إطارٍ يخدُم الصَّالح العام، وهو ما يتماشى مع الرُّؤية الإسلاميَّة.

إنَّ التَّركيز المُفرطَ على الحريَّات الفرديَّة في الثَّقافة الغربيَّة يخرّب الرَّوابط الاجتماعيَّة، ويُنتج مجتمعات تائهة وهشَّة، كما لاحظ (تشارلز تايلور)، في كتابه «العصر العلمانيّ». ومن الحِكمة إعطاء الأولويَّة للمصلحة النَّوعيَّة

---

١ - الحر العاملي: وسائل الشيعة، ج٢٠، ص٣٤٥، ح٢٥٧٨٧-٣.

2 - Roger Scruton: Sexual Desire (A Philosophical Investigation), p250 -360.

للإنسانيَّة على الرَّغبات الفرديَّة، الَّتي تتناقض مع القِيَم الكُبرى، كما هي قِيَم الحياة والاحترام. والمُجتمعات الَّتي غرقت في مستنقعات الرَّذيلة والشُّذوذ سرعان ما انهارت؛ ذلك أنَّ الطَّبيعة الإنسانيَّة تأبى القبول بمثل هذه الممارسات.

● المَبحَثُ الثَّاني: المُقاوَمةُ الثَّقافيَّةُ

يمُكن أن تكون المؤسَّسات الثَّقافيَّة، في إيران وبلدان أُخرى مثل العراق ولبنان، مثالاً حيًّا على مقاومة الحرب النَّاعمة الأمريكيَّة والغربيَّة عليها -منذ عقود- من خلال العقوبات الاقتصاديَّة، والتَّأثير الثَّقافيّ والحملات الإعلاميَّة، ودعم الاحتجاجات الدَّاخليَّة. وكان ردَّها مزيجًا من الصُّمود والتَّكيُّف والهجمات المضادَّة.

أَوَّلًا: السّينمَا والدّرَامَا

من المُهمّ التَّوقُّف بشكلٍ خاص عند الفنون البصريَّة والسَّمعيَّة مثل الأفلام والمسلسلات والأناشيد، والمِثال الإيرانيّ، الَّذي يُقدّم نَموذجًا لمقاومة «الحرب النَّاعمة» المُتصاعدَة. تعتمد إيران على إنتاجات فنيَّة تُركّز على تعزيز القِيَم الإسلاميَّة والتَّقاليد الوطنيَّة، وتتناول شخصيَّات تاريخيَّة ودينيَّة ذات مقامات رفيعة، مثل الأنبياء والأئمَّة عليهم السلام. وهذه الاستراتيجيَّة لا تهدف إلى الحفاظ على الهُويَّة الثَّقافيَّة فقط، بل تُريد

تقديمَ رواية مضادَّة تُعمّق التَّماسك الاجتماعيَّ، وتُحصّن الشَّباب ضدَّ التَّأثيرات الخارجيَّة المدمّرة.

وخلال العقود الأربعة الماضية، شهدت السّينما والدّراما الإيرانيَّة تحوُّلات كبيرةً في اتّجاه استعادة القِيَم الدّينيَّة والوطنيَّة. وظهرت أفلام مثل «مملكة سليمان» (٢٠١٠)، الَّذي يتناول قصَّة (النَّبيّ سُليمان) عليه السلام، و «يوسُف النَّبيّ» (٢٠٠٨) المسلسل التلفزيونيّ، وفيلم «محمَّد رسول الله» (٢٠١٥)، وغيرها، وهي أعمالٌ فنيَّة تُظهر كيف تستلهم إيران من تاريخ الأنبياء (ع)، لتقديم نماذج للعدالة والصَّبر والحِكمة. كما تتناول أعمالاً أُخرى مثل «الإمام عليّ» (١٩٩٧)، سيرة الإمام عليه السلام، مُبرزة قِيَمه في الحُكم والشَّجاعة والزُّهد. وهذه الإنتاجات لا تقتصر على السَّرد التَّاريخيّ، بل تُدمِج رسائلَ معاصرةً تُشجّع على الانضباط الخُلُقيّ والمُقاومة الثَّقافيَّة.

ومِثلُ هذه الإنتاجات تلعبُ دورًا كبيرًا في مقاومة الحرب النَّاعمة، الَّتي تعتمد التَّأثير الثَّقافيَّ لتغيير القِيَم والسُّلوكيَّات. فهي أدوات لمواجهة الغزو الثَّقافيّ الغربيّ، الَّذي يُروّج للإباحيَّة والمُخدّرات والمِثليَّة والاستهلاكيَّة، وغرس القِيَم الدّينيَّة في النُّفوس. وهو ما عبرَّ عنه المُخرج الإيرانيُّ (حجت الله سيفي) في حوار مع «العين الإخباريَّة» (٢٠٢٤)؛ حيث أكَّد أنَّ «السّينما الإيرانيَّة تتحمَّل مسؤوليَّة نقل التَّقاليد والثَّقافة الإسلاميَّة للعالم، ممَّا يُعزّز الأصالة، ويحمي المجتمع من التَّفكُّك». وهذه الرُّؤية تُظهر كيف تُصبح الفنون سلاحًا للدّفاع عن الهُويَّة.

كما اعتبر النَّاقد الإيراني (أمين فارزانفار)، في مقال له على «Qantara.de»، أنَّ «الأفلام الإيرانيَّة الَّتي تتناول الأنبياءَ والأئمَّة عليهم السلام تتميَّز بطابع رمزيّ عميق». وهو يُشيد بالجماليَّات البصريَّة لهذه الأعمال، رغم أنَّه ينتقد اعتمادها على السَّرد التَّاريخيّ بدلاً من معالجة التَّحديات المُعاصرة. من جهته، يؤكّد المُخرج (مجيد مجيدي)، الَّذي أنتج «محمَّد رسول الله» (٢٠١٥)، أنَّ «هذه الأفلام تهدف إلى إلهام الشَّباب بالقِيَم النَّبيلة، وهي ردٌّ فعلٍ طبيعيّ على الثَّقافة الغربيَّة السَّطحيَّة».

وفي رأي المخرج السينمائي التُونُسيّ (رضا الباهي)، الَّذي شارك في الدَّورة السَّابعة عشرة لمهرجان المُقاومة الدَّوليّ في إيران، كان للسّينما الإيرانيَّة «دورٌ كبيرٌ جدًّا، سواء في العالم الإسلاميّ أم العالم بأسره». وهذا الرأي يعكس تقديرًا لقدرة السّينما الإيرانيَّة على الجمع بين البُعد الفنيّ والرّسالة الثَّقافيَّة.

ينظُر النُّقاد العرب إلى السّينما الإيرانيَّة من زاوية قُدرتها على تحقيق إنجازات عالميَّة، وهو أمر قد يثير مقارنات مع التَّحديات الَّتي تُواجه السّينما العربيَّة. فمثلاً اشتُهرَت السّينما الإيرانيَّة بأسلوبها الواقعيّ الجديد المُشابه للسّينما الإيطاليَّة في فترة ما بعد الحرب، واستخدامها للرَّمزيَّة والمجاز للتَّعبير عن قضايا معقَّدة، وهي عناصر قد تجذب النُّقَّاد المهتمين بالجوانب التّقنية والجماليَّة للفن السَّابع.

وفي سياق أوسع، يُمكن أن يُنظر إلى السّينما الإيرانيَّة بما هي تجربة

مُلهمة، خاصَّة مع أفلام مثل «طعم الكَرز» لـ (عباس كيارستمي) أو «الانفصال» لـ (أصغر فرهادي)، الَّتي حصدت جوائز عالميَّة كبيرة. فهذه الأعمال، ببساطتها الظَّاهريَّة وعُمقها الفكريّ، قد تُقدَّر من قبل النُّقَّاد، الَّذين يبحثون عن سينما تجمع بين الهُويَّة المحليَّة والانتشار العالميّ، أي بالمقاومة الثَّقافيَّة الشَّاملة.

وفي الغرب، يرى النَّاقد السينمائيّ (بيتر برادشو)، من «الغارديان»، أنَّ «السّينما الإيرانيَّة التَّاريخيَّة تتمتَّع بقوَّة بصريَّة وروحيَّة، لكنَّها قد تبدو دعائيَّة للمُشاهد الغربيّ، بسبب تركيزها على الرَّسائل الخُلُقيَّة». وعلى النَّقيض من ذلك، يُشيد النَّاقد الأمريكيُّ (روجر إيبرت -Roger Ebert) بأعمال مثل «أطفال السَّماء» لـ (مجيدي). فيما يذهب النَّاقد المصريُّ (طارق الشّناوي) إلى أنَّ «الدّراما الإيرانيَّة تقدّم بديلاً حلالاً يبتعد عن الغرائز، لكنَّها قد تفتقر إلى الجرأة في تناول قضايا اجتماعيَّة معاصرة حسَّاسة».

تُثبت المسلسلات التَّاريخيَّة، الَّتي تتناول شخصيَّات تاريخيَّة رفيعة شعبيَّتها؛ حيثُ تُقدّم نماذج مُلهمة تُعاكس الثَّقافة الاستهلاكيَّة. وتُظهر الفنون الإيرانيَّة بأفلامها ومسلسلاتها، كيف يمكن للفن أنْ يكون أداةً في مقاومة الحرب النَّاعمة. وبتناولها شخصيَّات مثل الأنبياء والأئمَّة (ع)، تُعزّز هذه الأعمال الالتزام بالقِيَم والتَّقاليد، وتُحصّن المُجتمع ضدَّ التَّلاعُب الثَّقافيّ. وتُبرز آراء النُّقَّاد الإيرانيّين التَّوازنَ بين المِثاليَّة والواقعيَّة، بينما يرى الغربيُّون جمالاً فنيًّا مع تحفُّظات أيديولوجيَّة، ويُشيد العربُ

بالقوَّة الدّراميَّة، مع انتقادات دينيَّة محدودة مثل تجسيد الأنبياء (ع). وفي كل الأحوال، تُثبت هذه الإنتاجات أنَّ الفنَّ يمكن أن يكون درعًا وسيفًا في آنٍ واحد.

ثَانِيًا: فَاعليَّة الشّعرِ المُقاوِم

يتجاوز شعر المقاوَمة الحدودَ الجغرافيَّة والثَّقافيَّة، وهو تيَّار أدبيٌّ يُعبّر عن رفض الهيمنة، والظُّلم، والاستعمار بأشكاله المختلفة، سواء أكانت عسكريَّة أم ثقافيَّة، كما في الحرب النَّاعمة. ويُعد هذا الشّعر أداة تعبيريَّة تجمع بين الفن والسّياسة، وتستند إلى العاطفة والفِكر معًا، وفي وقت واحد، لتعبئة الجماهير وترسيخ الهُويَّة في مواجهة محاولات الطَّمس السّياسيّ والتَّفكيك الثَّقافيّ. وفي سِياق الحديث عن مواجهة الحرب النَّاعمة، يُصبح شعر المقاومة منبراً للدّفاع عن القِيَم المحليَّة والدّينيَّة والوطنيَّة ضدَّ التَّأثيرات الخارجيَّة، الَّتي تسعى لفرض روايات مهيمنة.

يتميَّز شعرُ المقاومة بقُدرته على تحويل الألم والمعاناة إلى طاقة إبداعيَّة تدعو إلى الصُّمود والنّضال. وفي العالم العربيّ والإسلاميّ، ارتبط هذا اللون من الشّعر غالبًا بالقضايا الكُبرى مثل فلسطين، العراق، لبنان، وإيران؛ حيثُ يتَّخذ أشكالاً متنوعة، تتراوح بين القصيدة العموديَّة والشّعر الحرّ، رغم اختلاف اللغة والأسلوب كما يقتضيه السِياق الثَّقافيّ.

أمَّا مضامين هذا الشّعر فتتعدَّد لتعكس التَّحديات الَّتي يواجهها الشُّعراء

ومجتمعاتهم، وهي تشمل الدّفاع عن الهُويَّة، سواء كانت دينيَّة كالقِيَم الإسلاميَّة، أو قوميَّة كالعروبة، أو محليَّة ضيقة. فهو يُستخدم للحفاظ على الذَّاكرة الجمعيَّة ضدَّ محاولات الطَّمس.

والتَّعبير عن الصُّمود يتمُّ من خلال تصوير البطولة والتَّضحية، كما في أشعار المقاومة الفلسطينيَّة واللبنانيَّة، الَّتي تتحدَّث عن التَّضحيات والأرض. ومن خلال الرَّد على الحرب النَّاعمة، مثل مواجهة الدّعاية الثَّقافيَّة والإعلاميَّة، عبر إبراز الرّواية المُضادَّة، كما هو التَّركيز على القِيَم الخُلُقيَّة والدّينيَّة ضدَّ النَّزعات الماديَّة الغربيَّة.

يعملُ شعرُ المقاومة على تعبئة النَّاس، وتحفيز الجماهير للعمل والنّضال، بالسّلاح أو بالوعي. وهو يحمل رمزيَّة تاريخيَّة هائلة، ويستلهم من رموز كبيرة مثل كربلاء و(الإمام الحسين) عليه السلام في الشّعر الشّيعي، أو من التَّاريخ العربيّ المُعاصر، كما في الشّعر القوميّ.

ويضمُّ شعر المقاومة تيَّارات مُتنوّعة، يساريَّة وقوميَّة ودينيَّة. ومن أبرز ممثّليه في العالم العربي الشَّاعر اليساريّ (محمود دَّرويش) في فلسطين. وهو رمز شعرِ المُقاومة الفلسطينيَّة، وقد كتب قصائد كثيرة مثل «بطاقة هُويَّة» و«عاشقٌ من فلسطين»، الَّتي تجمع بين الحب والنّضال، مع التَّركيز على الهُويَّة والأرض. وقد واجه شعره الحربَ النَّاعمة، عبر رفض الرّواية الصُّهيونيَّة.

وهناك (مظفَّر النَّواب) في العراق، وهو شاعر يساريٌّ قوميٌّ من عائلة

شيعيَّة، اشتهر بقصائده العموديَّة مثل «القدس عروس عروبتكم»، الَّتي تجمع بين النَّقد السّياسيّ للأنظمة العربيَّة، والدّفاع عن القضيَّة الفلسطينيَّة، مع طابعٍ شعبيّ قويّ. وتضمُّ القائمة أيضًا (سميح القاسم) من فلسطين. وقد كتب شعرًا مقاومًا مثل «رسالة من تحت الأنقاض»، يعبرّ عن الصُّمود الفلسطينيّ، ويواجه الدعاية «الإسرائيليَّة».

وهناك الشَّاعر العراقيُّ (محمد مهدي الجواهري) وهو شاعر كلاسيكيٌّ كبير، مزج بين القوميَّة والشُّعور الدّينيّ الشّيعيّ، كما في قصائده عن كربلاء والمُقاومة ضدَّ الظُّلم. كما نجد (علي معلم دمشقي) من إيران، ويُلقَّب بشاعر الثَّورة. وقد كتب في المُقاومة ضدَّ الشَّاه والغربِ، مع التَّركيز على القِيَم الشّيعيَّة.

ويحضر أيضًا (أحمد مطر) وهو شاعر عراقيٌّ ساخر، استخدم الهِجاء للرَّد على القمع السّياسيّ والحرب النَّاعمة، كما في ديوانه «الكتابات على قشرة البندق». كما يُمكن اعتبار الشَّاعر السُّوريّ (نزار قباني) رغم شهرته بالغزل، شاعرًا مقاومًا كتب مثلاً «هوامش على دفتر النَّكسة»، منتقدًا الهزيمة العربيَّة وداعيًا لليقظة، كما كتب قصائد مُلهمة في الإمام الحُسين، الَّذي يبقى رمزًا هائلاً للصَّبر والتَّضحية.

يُواجه شعرُ المقاومة الحربَ النَّاعمة عبر تعميق الوعي، من خلال الكشف عن محاولات التَّلاعُب الثَّقافيّ والحثّ على التَّمسُّك بالجُذور. وهو يستخدم لغةً شعبيَّة قريبة من النَّاس، لضمان انتشار الرّسالة الشّعريَّة

بعيدًا عن النّخبويَّة. فهو شعر يرفض التَّبعيَّة الثَّقافيَّة للغرب، أو رواياته المهيمنة في الإعلام والتَّعليم، كما في شعر (درويش) و(مظفَّر النَّواب).

وشعر المُقاومة أداةٌ متعدّدة الأوجه، تجمع بين الفن والنّضال، وتتكيَّف مع السّياقات المحليَّة، بينما تُحافظ على جوهرها باعتبارها صوتًا للمظلومين. وتتناول مضامينه مسألة الهُويَّة والصُّمود والرد على الهيمنة. ويتنوَّع ممثّلوه بين شعراء تقليديين وحداثيّين، عرب وفرس، علمانيّين ودينيّين في مواجهة الحرب النَّاعمة، فيبقى هذا الشّعر درعًا ثقافيًّا وسلاحًا معنويًّا له أهميَّته البالغة.

وعندما يتعلَّق الأمر بالثَّقافة الإسلاميَّة ذات الجذور العميقة المتَّصلة بأئمة أهل البيت عليهم السلام، فإنَّ الشّعرَ الشّيعيَّ -في العراق وإيران وبقيَّة الدُّول، الَّتي ينتشر فيها التَّشيُّع، مثل لبنان واليمن والبحرين- يُعتبر أداة ثقافيَّة ودينيَّة ذات أهميَّة كبيرة في تعزيز القِيَم الدّينيَّة، ومواجهة الحرب النَّاعمة خلال العقود الماضية. وهذا الدَّور يتجلَّى من خلال وظائفه المتعدّدة بما هو وسيلة تعبيرٍ جماعيّ، وأداة تعبئة عاطفيَّة، ومِنبر لمقاومة الهيمنة الثَّقافيَّة والسّياسيَّة الخارجيَّة. ولفهم هذا الاعتبار، يمكن تناوله من عدَّة زوايا، مثل تعزيز الهويَّة الدينيَّة والثَّقافيَّة؛ حيثُ يلعب الشّعر، خصوصًا في سياق المراثي الحُسينيَّة والمدائح الَّتي تتناول أهل البيت عليهم السلام، دورًا محوريًّا في ترسيخ الهُويَّة الدّينيَّة للمجتمعات الشّيعيَّة المسلمة.

في العراق، مثلاً، ارتبط الشّعر تاريخيًّا بأحداث كُبرى مثل واقعة كربلاء،

الَّتي تُعدُّ رمزًا للصُّمود والمُقاومة. فكان هناك شعراء مثل (السَّيد الحِميَري) في العصر الأُموي، و(حيدر الحِلي) في العصر الحديث، الَّذين استخدموا الشّعر لنقل القِيَم الدّينيَّة مثل العدالة، التَّضحية، والدّفاع عن المظلومين، ممَّا جعله أداة للحِفاظ على الذَّاكرة الجماعيَّة. وفي إيران، تَعزَّز هذا الدَّور خلال العقود الماضية، من خلال دعم الشّعر الَّذي يمجّد القِيَم الإسلاميَّة، كما في قصائد الغدير الَّتي تؤكد ولاية (الإمام علي) عليه السلام.

يتجاوز الشعر الإسلاميُّ الشّيعيُّ كونه مجرَّد نصّ أدبيّ، إذ يُستخدَم في الطُّقوس الدّينيَّة مثل مجالس العزاء في شهر محرَّم، لتحريك العواطف، وتوحيد النَّاس حول قضايا مشتركة. وفي العراق، خلال فترات الاضطهاد تحت الحكم العثمانيّ أو البعثيّ، كان الشّعر وسيلةً للتَّعبير عن المعاناة والمقاومة.

استخدم الشعر سلاحًا مضادًّا للدّعاية السُّلطويَّة، الَّتي مورست ضدَّ الشّيعة منذ قرون. وفي المرحلة المتأخرة، عندما حاولت قُوى خارجيَّة فرض روايات ثقافيَّة أو سياسيَّة تهدف إلى تهميش الهُويَّة الشّيعيَّة، كان الشعر منبرًا للرَّد. ومن ذلك مثلاً، استُخدِم الشّعر في مواجهة الدّعاية الغربيَّة أو العربيَّة، الَّتي صوَّرت التَّشيُّع كما لو كان انحرافًا أو تهديدًا، وقدَّم رواية بديلةً تؤكّد الجذورَ التَّاريخيَّة والدّينيَّة للمذهب. والأمر نفسه في دول مثل لبنان؛ حيثُ استخدم شعراء الشّيعة الشّعرَ لتعزيز ثقافة المُقاومة ضدَّ الاحتلال «الإسرائيلي»، ممَّا ساعد في الحفاظ على تماسُك المُجتمع.

لم يقتصر الشّعر الشّيعيُّ على العراق وإيران ولبنان، بل امتد إلى دول أخرى كالبحرين؛ حيثُ كان له دور في الاحتجاجات الشعبيَّة ضدَّ الحُكم. كما انتشر في اليمن؛ حيث استُخدم الشّعر الزَّيديُّ لتعبئة الأنصار. جعلت هذه المرونة الشّعر أداةً عابرةً للحدود، قادرة على التَّكيُّف مع السياقات المحليَّة دون التَّخلي عن جوهر القِيَم الدّينيَّة. ومع انتشار الإعلام الرَّقمي، أصبح الشّعر الشّيعيُّ يُنشر عبر منصات مثل «يوتيوب»، ممَّا زاد من تأثيره في مواجهة الحرب النَّاعمة، الَّتي تعتمد على التّكنولوجيا.

ثَالثًا: المَجالِسُ والأَنَاشِيدُ

تبقى الأناشيد والمجالس واللطميَّات، في التُّراث الشَّعبيّ: في العراق وإيران ولبنان والبحرين، ومناطق أخرى مثل باكستان والهند نموذجًا فنيًّا فريداً، يجمع بين التَّعبير الدّينيّ والجماليَّ؛ حيثُ تُخاطِب الرُّوح الإنسانيَّة بعمق، وتسعى إلى تنقيتها من خلال إثارة المشاعر واستحضار القِيَم الرُّوحيَّة والخُلُقيَّة. هذه الأشكال الفنيَّة، الَّتي تطوَّرت عبر قرون في سياق الممارسات الشّيعيَّة، لا تقتصر على كونها شعائر دينيَّة، بل تمُثّل تجربة فنيَّة تحمل في طيَّاتها الشّعر، واللحن، والأداء الجماعيَّ.

فمن النَّاحية الفنيَّة، تتميَّز الأناشيد واللطميَّات ببنية شعريَّة غنيَّة، وإيقاعات موسيقيَّة تعتمد الصَّوت البشريّ أداةً رئيسةً. والأناشيد، الَّتي غالبًا ما تُركّز على مدح النَّبي محمدٍ وأهل بيته عليهم السلام، تَستخدم لُغة شعريَّة

متأثرةً بالتُّراثَين العربيّ والفارسيّ الكلاسيكيّ، ممَّا يمنحها طابعًا أدبيًّا راقيًا. أمَّا اللطميَّات المرتبطة، بالأساس، باستذكار واقعة كربلاء ومأساة الإمام الحسين عليه السلام، فتعتمد على الإلقاء الإيقاعيّ المصحوب بحركات جسديَّة متناسقة تكرّس التَّأثير العاطفيَّ. وهذا المزيج من الشّعر واللحن والمسرح يخاطب الرُّوح مباشرةً دون وسيط. والتَّكامل بين الوحدات الثَّلاث يجعل الأنشودة واللطميَّة وسيلةً تعبيريَّةً تخترق الحواجز اللُّغويَّة والثَّقافيَّة.

تعمل الأناشيد واللطميَّات بشكلٍ عميق على تطهير الرُّوح والارتقاء بالوجدان. فهي تستحضر قِيَمَ التَّضحية والفِداء والصَّبر والعدالة والحريَّة والشُّموخ، كما جسَّدها الإمام الحُسين وأولاده وأصحابه، وكما فعلت السَّيدة زينب بنت علي، والإمام علي بن الحسين في محضر «ابن زياد» في الكوفة و«يزيد» في دمشق. وهذا يدفع المستمع إلى التَّأمُّل في معنى الحياة، والموقف الخُلُقيّ والحقّ التَّاريخيّ.

ليست اللطميَّات مجرَّد أداءٍ صوتيّ، بل هي ممارسة تنقل المشاركين إلى حالة من التَّجلّي الرُّوحيّ؛ حيثُ تُطهَر النَّفس عبر البُكاء والتَّفاعُل الجماعيّ. وهذا التَّفاعل، الَّذي يشمل النَّغم واللطم على الصُّدور، يُعزّز الشُّعور بالانتماء، ويخلق تجربةً تعبديَّة تتجاوز الجانبَ الفرديَّ إلى البُعد الاجتماعيّ.

كما أنَّ القدرة على مخاطبة الرُّوح تنبع من العاطفة الصَّادقة، الَّتي تحملها هذه الأناشيد واللطميَّات. فهي لا تُقدَّم باعتبارها عرضًا فنيًّا

مجرَّدًا، بل بما هي جزء من تجربة عاشها المؤمنون عبر التّاريخ، ممَّا يُضفي عليها صدقًا وتأثيرًا عميقًا. ومن المُمكن تصنيف اللطميَّات ضمن صور الفنّ الشَّعبيّ، الَّذي يُعبّر عن الألم الجماعيّ ويحوّله إلى قوَّة شفائيَّة، ممَّا يجعلها أداةً للتَّنقية الرُّوحيَّة. تحمل اللطميَّات عمقًا حزينًا، لكنَّ هذا الحزن يتحوَّل إلى سموّ روحيّ، يمنح المُستمع الفرصة للتَّخلص من الثّقل النَّفسيّ، والاقتراب من حالة الصَّفاء الدَّاخليّ.

ومضافًا إلى ذلك، تتميَّز الأناشيد واللطميَّات بقدرتها على التَّكيُّف والتَّطوُّر مع الزَّمن، ممَّا يُثبت مكانتها باعتبارها فنًّا حيًّا. فمن الأناشيد التَّقليديَّة الَّتي تُرتَّل بأصوات عذبة، إلى اللطميَّات الحديثة الَّتي قد تُصاحب بمؤثّرات صوتيَّة بسيطة، تظلُّ هذه الأشكال متجدّدَة دون خسارة جوهرها الرُّوحيّ. تحمل اللطميَّات تُراثًا عميقًا يتفاعل مع الواقع المعاصر، ويكمن جمالها في قدرتها على أن تكون قديمةً وحديثةً في آنٍ واحد، فهي مكتبةٌ ثريَّةٌ، وفنٌّ متميّزٌ يتجاوز حدود الزَّمان والمكان.

ولا شكَّ أنَّ الأشكالَ الثَّقافيَّة، الَّتي يُمكن أنْ تكونَ أدواتٍ لمقاومة الثَّقافة الغربيَّة، ونشر الثَّقافة الإسلاميَّة مُتعدّدَة. فإضافة إلى السّينما والدّراما والشّعر والأناشيد، هناك الخطُّ العربيُّ والفنُّ التَّشكيليُّ والرّوايةُ والمسرحيَّة، وغير ذلك ممَّا لا يَسمح المجال بتناولها هنا.

خَاتِمَةٌ

تتجاوز استراتيجيَّةُ الحرب النَّاعمة العُنفَ الماديَّ، لتستهدف العقولَ والقِيَم في معركة طويلة الأمد، وتترك تداعيات عميقة، يظهر أثرُها في نشر الإدمان، والتَّشتُّت الفِكريّ، والهبوط الخُلُقيّ، والتَّفكُّك الاجتماعيّ، والإرهاب، والطَّائفيَّة. ولم تعد هذه الآثار خفيَّة، بل أصبحت ملموسة في المجتمعات المستهدفة، خاصَّةً تلك الَّتي تُقاوم الهيمنة الثَّقافيَّةَ الغربيَّةَ.

واجهت تلك الحربُ النَّاعمة بأوجهها المُتعدّدة: الفِكريَّة والثَّقافيَّة والاجتماعيَّة مقاومةً شرسة داخل الأوساط الأكثر وعيًا بمخاطرها، واستُخدمت في تلك المواجهة: الأفكار والمعارف والفنون المختلفة. كما لعبت الثَّقافة الإسلاميَّة دورها الحاسم في صدّ الهجمات الغربيَّة النَّاعمة.

لكنَّ تلك القوَّة النَّاعمة ذات المضامين الهابطة، والَّتي بدأت سلاحًا استخدمه الغرب من أجل الهيمنة، لم توفّر المجتمعات الغربيَّة، بل كانت هي أُولى ضحاياها، مُخلفةً تفكُّكًا اجتماعيًّا، وهبوطًا خُلُقيًّا، وسقوطًا في غريزيَّة متفلّتة. وقد برَّر (جوزيف ناي) وجودها، وحلَّل (ماكنتاير) و(باومان) انهيار القِيَم فيها، وركَّز (سكروتون) و(بوستمان) على حالة البؤس الاجتماعيّ. وهذه المفارقة تُظهر أنَّ القوَّة النَّاعمة، بقدر ما كانت أداةَ سيطرةٍ وهيمنة، باتت تمُثّل تهديدًا ذاتيًّا يواجه الغرب دون وجود أفق للتَّصحيح.

وهذا كله يُنذر بانهيار حضاريّ مشابه لما شهدته الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة. فالأمر هنا ليس جديدًا؛ حيثُ نجد لدى المؤرخين والفلاسفة الغربيّين ربطًا بين التَّرديَّ الخُلُقيّ ونهاية الحضارات، وأنَّ الغرب قد يكون على مفترقِ طرق شبيه بما واجهته روما.

يُرجِع المؤرخ البريطانيُّ (إدوارد جيبون -Edward Gibbon) سقوط روما جُزئيًّا، إلى «التَّدهور الخُلُقيّ والهوس الجنسيّ»، معتبراً أنَّ «التَّرف المُفرط والفساد الخُلُقيّ أضعفا روح المواطنة والانضباط»[1]. وهو يرى أنَّ الرُّومان، بعد أن تحوَّلوا إلى مجتمع يلهث وراء الملذَّات، من المجون في الحفلات إلى الانحلال في العَلاقات، فقدوا القدرة على مواجهة التَّحديات الخارجيَّة، ممَّا مهد لسقوطهم. وهذا التَّوصيف يُشبه حالة الغرب اليَوم؛ حيثُ تُظهر القوَّة النَّاعمة، ذات المضامين الرديئة، من خلال الإعلام المضلّل والإباحيَّة الفجَّة، تشابُهًا في الخضوع للغرائز على حساب القِيَم. وهذا الأمر لا يخصُّ المجتمعات الغربيَّة، بل يشمل أيضًا المجتمعات الَّتي تسير على طريقتهم، ذلك أنَّ سنن التَّاريخ مطَّردة ولا تتخلَّف.

---

1 - Edward Gibbon: The History of the Decline and Fall of the Roman Empire (published between 1776 and 1788), Bury edition, Volume I, Chapter 2, pp 4060-. Chapter 9, p230250-. Chapter 15, pp 450500-. And: Volume II, Chapter 38, pp 500520-.

إنَّ الثَّقافة الغربيَّة الحديثة، بتركيزها على الاستهلاك والمُتعة، تُنتج سيولة تُذيب الرَّوابط الاجتماعيَّة والخُلُقيَّة، وهذا الواقع يُشبه ما عاشته روما في مرحلتها الأخيرة؛ حيثُ أدَّى الهوس الجنسيُّ وفقدان الضَّوابط إلى هشاشة داخليَّة[١]. وما يجري في الغرب اليوم، لا يختلف عن ذلك الواقع، بل إنَّه أسوأ، فقد بنى الأوروبيُّون والأمريكيُّون أيديولوجيَّتهم الليبراليَّة على أساس الفردانيَّة و»التَّحرُّر». استخدم الغرب توجُّهاته الغريزيَّة لمحاربة الشُّعوب الأخرى، لكنَّه نسي أنَّ تأثير هذا التَّوجُّه لا بدَّ أن يصيب مجتمعاته أيضًا.

يُشكّل انهيارُ الأخلاق بدايةً لانهيار الحضارات[٢]، ففقدان الفضيلة في الغرب، كما حدث في روما، يُنتج مجتمعاتٍ مشتَّتةً وخانعة وعاجزة عن مواجهة الأزمات. و»الحضارات تسقط عندما تفقد طاقتها الرُّوحيَّة والإبداعيَّة»[٣]. فالتردِّي الخُلُقيُّ علامة على نهايتها، ويمُكن أن يتكرَّر في الغرب، إذا استمرَّ انهياره الخُلُقيُّ.

١ - زيغمونت باومان: الحداثة السائلة، ص١١٥-١٢٥.
٢ - ألاسدير ماكنتاير: ما بعد الفضيلة، ص١٥-٢٠ وص ٨٥-٩٠.
٣ - أرنولد توينب،: موجز دراسة التاريخ، ص٣٢٠-٣٣٠.

المَصَادِر والمَرَاجِع

العربيَّة والمترجمة إلى العربيَّة

- آلان دونو: نظام التفاهة، ترجمة: مشاعل عبد العزيز الهاجري، فادي كحلوس، دار سؤال للنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ط١، ٢٠٢٠.
- إدغار موران: المنهج (معرفة المعرفة، الأفكار)، ترجمة: يوسف تيبس، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء-المغرب، لا ط، ٢٠١٣.
- إدوارد سعيد: الاستشراق، ترجمة: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت - لبنان، ط١، ١٩٨١.
- أرنولد توينبي: موجز دراسة التاريخ، ترجمة: فؤاد محمد شبل، دار القلم، بيروت، لا ط، ١٩٧٠.
- ألاسدير ماكنتاير: ما بعد الفضيلة، ترجمة: سعيد الغانمي، دار التنوير، بيروت، لا ط، ٢٠١١.
- إيمانويل كانط: نحو السلام الدائم (مشروع فلسفي)، ترجمة: فؤاد زكريا، دار التنوير، بيروت - لبنان، لا ط، ١٩٨٤.
- تشارلز تايلور: خُلُقيّات الأصالة، ترجمة: أحمد فؤاد أحمد، المركز القومي للترجمة، القاهرة-مصر، لا ط، ٢٠١٥.
- جان بودريار: الصورة والمحاكاة، ترجمة: نصر حامد أبوزيد، دار الطليعة للنشر والتوزيع، لا م، لا ط، ٢٠٠٧.

- جان بول سارتر: الوجود والعدم (بحث في الأنطولوجيا الفينومينولوجية)، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، دار الآداب، بيروت -لبنان، ط١، ١٩٦٦.
- جايل داينيز: عالم المواد الإباحية (كيف اختطفت المواد الإباحية حياتنا الجنسية)، ترجمة: محمد درويش، دار الساقي، بيروت، لا ط، ٢٠١٢.
- جون إسبوزيتو: التهديد الإسلامي (أسطورة أم واقع؟)، ترجمة: أحمد محمود عبد المقصود، المركز القومي للترجمة، القاهرة، لا ط، ٢٠٠٨.
- جوزيف ناي، القوة الناعمة (وسيلة النجاح في السياسة الدولية)، ترجمة: محمد توفيق البجيرمي، العبيكان للنشر، الرياض، لا ط، ٢٠٠٧.
- جون لوك: في الحكم المدي، ترجمة: ماجد فخري، اللجنة العربية للترجمة، القاهرة، لا ط، لا ت.
- الحر العاملي، وسائل الشيعة، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم، ١٤١٤هـ.
- ديفيد س. غومبرت وهانس بيننديك: القدرة على الإرغام: مواجهة الأعداء بدون حرب، مؤسسة راند، سانتا مونيكا - كاليفورنيا، لا ط، ٢٠١٦.
- روجر سكروتون: الثقافة الحديثة، ترجمة: سمير عبيد، دار شرقيات

للنشر والتوزيع، القاهرة -مصر، لا ط، ٢٠٠٩.

- زيغمونت باومان: الحداثة السائلة، ترجمة: محمد جلال حمزة، دار الساقي، بيروت، ٢٠٠٧، لا ط، ص١١٥-١٢٥.
- سون تزو: فن الحرب، إعداد: أحمد ناصيف، دار الكتاب العربي، دمشق -سوريا، لا ط، ٢٠١٠.
- فريدريك جيمسون: ما بعد الحداثة أو المنطق الثقافي للرأسمالية اللاحقة، ترجمة: عبد الرحيم حجيري، دار الأمان، الرباط-المغرب، لا ط، ٢٠١١.
- فرانسيس فوكوياما: نهاية التاريخ، ترجمة: صالح الحمصي، دار الساقي، بيروت- لبنان، ط١، ١٩٩٣.
- القاضي النعمان: دعائم الاسلام، دار المعارف، القاهرة-مصر، لا ط، ١٣٨٣ - ١٩٦٣.
- كارل إرنست، على نهج محمد، ترجمة حمزة حليقة، ط٢، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق- سوريا، لا ط، ٢٠١٢.
- كارين أرمسترونغ، معركة من أجل الإله (تاريخ الأصول)، ترجمة: فؤاد صفا، دار الفارابي، بيروت، لا ط، لا ت.
- محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، دار الكتب الاسلامية، طهران-إيران، ط٣، ١٣٨٨ هـ ش.
- نعوم تشومسكي وإدوارد هيرمان: صناعة الموافقة (الاقتصاد السياسي

لوسائل الإعلام)، ترجمة: فؤاد شاهين، دار الآداب، بيروت، لا ط، ١٩٩٨.

- نعوم تشومسكي وجيلبرت أشقار: القوة الخطرة (الشرق الأوسط والسياسة الخارجية الأمريكية)، ترجمة: أحمد عبد الله، دار الطليعة للنشر والتوزيع، بيروت، لا ط، ٢٠٠٧.
- نيل بوستمان: اللهو حتى الموت (الخطاب العام في عصر الأعمال الترفيهية)، ترجمة: عبد الرحمن الماجد، دار الشروق، القاهرة، لا ط، ١٩٩٤.
- مارتن هيدغر: الوجود والزمان، ترجمة: فتحي المسكيني، دار التنوير للنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط١، ٢٠١٣.
- ماو تسي تونغ: في الحرب الطويلة الأمد، ترجمة: سمير جريس، دار التقدم، موسكو، لا ط، ١٩٦٧.
- محمد بن محمد (الشيخ المفيد): الإرشاد، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، بيروت- لبنان، لا ط، ١٤١٤هـ.
- الميرزا النوري: مستدرك وسائل الشيعة، مؤسسة آل البيت (ع) لإحياء التراث، بيروت-لبنان، ط١، ١٩٨٧.
- مايكل أكسورثي: إيران الثورية (تاريخ الجمهورية الإسلامية)، ترجمة: أحمد العدوي، دار الشروق، لا م، لا ط، ٢٠١٦.
- ميشيل فوكو: إرادة المعرفة (الجزء الاول من سلسلة تاريخ الجنسانية)،

ترجمة: مطاع صفدي وجورج أبي صالح، دار الانماء العربي، بيروت- لبنان، ط١، ١٩٩٠.

- ميشيل فوكو: المراقبة والعقاب، ترجمة: علي مقلد، المركز الثقافي العربي، بيروت- لبنان / الدار البيضاء- المغرب، ط١، ١٩٩٠.
- هانس كلسن: النظريّة العامّة للحقّ والدولة، ترجمة: فؤاد عبد المقصود كامل، دار النهضة العربية، القاهرة- مصر، لا ط، ١٩٦٦.

الأجنبية

- Alasdair MacIntyre, After Virtue: A Study in Moral Theory. University of Notre Dame Press, 1981.
- Alfred W. McCoy: The Politics of Heroin: CIA Complicity in the Global Drug Trade, Lawrence Hill Books, Place of Publication: New York, USA, 2003.
- Burdeau Georges: l'état, Seuil, Paris, 1970, p30.
- Charles Taylor: The Ethics of Authenticity, Harvard University Press, Cambridge, Massachusetts, USA, 1991.
- Charles Tilly, Coercion, Capital, and European States, AD 990- 1990.
- Daniel H. Abbott (Ed.). The Handbook of Fifth-Generation

Warfare (5GW). Ann Arbor, MI: Nimble Books, 2010.

- Edward Gibbon: The History of the Decline and Fall of the Roman Empire (published between 1776 and 1788), Bury edition, Volume I, Chapter 2. Chapter 9. Chapter 15. And: Volume II, Chapter 38.
- Emmanuel Kant: Political Writings, Tr:Lewis White Beck, Cambridge University Press, 1991.
- Fredric Jameson, Postmodernism or The Cultural Logic of Late Capitalism, Duke University Press, Durham, North Carolina, USA, 1991.
- Freund Julien: l'essence du politique, édit. Sirey, Paris, 1965.
- Gail Dines, Pornland: How Porn Has Hijacked Our Sexuality, Beacon Press, Boston, Massachusetts, United States, 2010..
- George Michael: Lone Wolf Terror and the Rise of Leaderless Resistance, Vanderbilt University Press, September 15, 2012.
- Jean Baudrillard: Simulacres et Simulation, Éditions Galilée, Paris, France, 1981.

- Joseph S. Nye Jr., Soft Power: The Means to Success in World Politics, New York, PublicAffairs, 2004.
- Martin van Creveld: Technology and War: From 2000 B.C. to the Present, The Free Press, New York, United States, 1989.
- Marshall McLuhan, Understanding Media (The Extensions of Man), McGraw-Hill, NY -USA, 1964.
- Michael J. Boyle, «The Costs and Consequences of Drone Warfare,» International Affairs, Volume 89, Issue 1, January 2013.
- Noam Chomsky, Media Control (The Spectacular Achievements of Propaganda), Seven Stories Press, 1991.
- Roger Scruton, Bloomsbury Continuum, London, United Kingdom, 2018.
- Roger Scruton: The West and the Rest: Globalization and the Terrorist Threat, ISI Books, Wilmington, Delaware, USA, 2002.
- Roger Scruton: Sexual Desire (A Philosophical Investigation), Weidenfeld & Nicolson ,1986.

- Terry Terriff, Aaron Karp, and Regina Karp (Eds.): Global Insurgency and the Future of Armed Conflict (Debating Fourth-Generation Warfare), London- Routledge, 2008.
- William S. Lind, Understanding Fourth Generation of War, 26th July 2016, 5GenFifth Generation Warfare, Terrorism, Violent Transnational Social Movements. See:
- http://www.da-ic.org/5gen/201626/07//william-s-lind-understanding-fourth-generation-war.
- Zygmunt Bauman: Liquid Modernity, Polity Press, 2000.

الفهرس

مُلخَّصٌ ٥

مقدمة ٧

١١ الفصل الأوّل: الإِطَارُ النَّظريُّ لِمفهُومِ الحَربِ النَّاعِمَةِ

المَبحَثُ الأَوَّل: أُسسُ مَفهُومِ القوَّة النَّاعِمَة ١٤

المَبحَثُ الثَّانِي: مُنعطَفاتُ الفِكر الغَربي ٢٤

المَبحثُ الثَّالثُ: الدَّولَة وثُنائيَّة الحربِ والسَّلام ٣١

٥١ الفَصلُ الثَّانِي: تَنوِيعَاتُ القُوَّةِ الاستِرَاتِيجِيَّةِ النَّاعِمَةِ

المَبحَثُ الأَوَّلُ: تمَوضُع القوَّة النَّاعِمة ٥٤

المَبحَثُ الثَّانِي: الحَربُ الثَّقافيَّة ٨٢

المَبحثُ الثَّالِث: الحَربُ الاجتِماعيَّةُ ١١٢

١٢٩ الفَصلُ الثَّالِثُ: القُوَّةُ النَّاعِمةُ المُضَادَّةُ

المَبحَثُ الأَوَّلُ: الأُسسُ النَّظرِيَّةُ للمُقاوَمةِ النَّاعِمةِ ١٣١

المَبحَثُ الثَّانِي: المُقاوَمةُ الثَّقافِيَّةُ ١٤٦

خَاتِمَةٌ ١٥٨

المَصَادِر والمرَاجِع ١٦١

مركز براثا للدراسات والبحوث

مركز بحثي مستقل غير ربحي، مقره في بيروت وبغداد. ويهدف لفتح المجالات العلمية والأكاديمية الواسعة، أمام الباحثين والمتخصصين؛ للقيام ببحوث تسعى إلى فهم واقع الإنسان والإنسانية، من خلال التركيز على دراسة الميادين الفلسفية، والاجتماعية، والإنسانية المتنوعة، التي تشكّل في مجموعها الحراك الاجتماعي والانساني الكبير الحاصل في العالم، وخصوصا في بلادنا العربية والإسلامية، ورصد الظواهر والتحديات الفكرية، والاجتماعية، والاقتصادية، والنفسية المختلفة، التي يمكن أن يواجهها الفرد والمجتمع، ومحاولة فهم ومدارسة الأسس الفلسفية والإجتماعية والدينية التأصيلية بموضوعية وجدة؛ سعيًا للوصول إلى حلول لها؛ من أجل السمو بالإنسان وتقدّمه في أبعاده الإنسانية المختلفة.

في هذا الكتاب

مع التَّدفُّق الهائل للمعلومات بسبب التَّطوُّر التّكنولوجي الكبير، وتشابُك المصالح، أصبحت الحرب النَّاعمة أداةً أساس، تستخدمها الدُّول والمنظَّمات لتحقيق أهدافها، دون الحاجة إلى إطلاق رصاصةٍ واحدةٍ. لم تعُد هناك حاجةٌ لاحتلال الأرض من أجل إعادة تشكيل الثَّقافة والوعي، وإعادة صياغة القِيَم والتَّأثير على القرارات السّياسيَّة والاجتماعيَّة، بل صارت أدواتٌ جديدةٌ تفعل ذلك مثل: الإعلام، والدبلوماسيَّة، والتّكنولوجيا، وحتَّى الفنون والتَّرفيه.

من المهمّ القول إن الحرب النَّاعمة ليست جديدةً في جوهرها، فقد استخدمت الإمبراطوريَّات -عبر التاريخ- الثَّقافة والدّعاية من أجل السَّيطرة، لكنَّها اليوم تتَّخذ أبعادًا غير مسبوقة، بفضل التّكنولوجيا ووسائل التَّواصُل. فهي حربٌ غير مُعلنة، لكنَّ آثارَها لا تخفى في: انهيار القِيَم، وفقدان للبوصلة الخُلُقيَّة.

وهنا السُّؤال الذي يحتاج إلى إجاباتٍ عمليَّة، ولكن أيضًا نظريَّة لا غِنى عنها: كيف يُمكن للمجتمعات -المُؤمنة خاصة، والمُسلمة عامة- أن تُحصّن نفسها ضدَّ هذا العدوّ الخفيّ غير المرئي؟ وكيف ينبغي لمطلب الوعي العميق، والإرادة الصُّلبة، والإستراتيجيَّات المُبتكرة، الَّتي تجمع بين احترام الذَّات، والتَّمسُّك بالجذور ومواجهة التَّحديات، أن تكون حاضرةً بقوةٍ لمواجهة هذه التَّهديدات غير المسبوقة؟